الفصل السادس

كيف بسط المسلمون نفوذهم في فرنسا

تفكير موسى بن نصير في عبور البرانس — السمح وفتح سبتمانيا (جوثيا) عام ٧٢١ م — أربونه قاعدة العمليات الحربية الاسلامية في أرض الفرنجة — عنبسة وحوض الرون واقترابه من باريس . عذرة الفهري ومساعدة بعض الفرنجة له — مبالغة المراجع اللاتينية وتحيزها — الغافقي ووادي الجارون — بلاط الشهداء (٧٣٢ م) — البروفنسيون يساعدون المسلمين — تغير الاحوال في الشرق بقيام الخلافة العباسية وفي الغرب بقيام الكارولنجيين — بين أبي جعفر المنصور وبين القصير — شارلمان وأحلامه الامبراطورية — اجتماع بادربورن ٧٧٧ م — كارثة رونسفال ٧٧٨ م — أغنية رولاند — صقر قريش والكارولنجيون ـ قصة الحماية الرمزية على القدس — قلعة فراكسينيتوم وامتداد الغزو الاسلامي الى سانتوى — التحكم في معابر الألب — غزوات لجاهد العامري .

جاءت محاولة العرب فتح فرنسا ، من أهم أحداث عهد الإمارة الإسلامية ، فى أسبانيا (٩٥ — ١٣٨ هـ / ٧١٤ — ٧٥٥ م) ، وقد فكر موسى بن نصير فى عبور البرانس [البرت [١]] والاندفاع فى غربى أوربا وبسط السيادة الإسلامية على فرنسا . ويطلق العرب على فرنسا اسم « الأرض الكبيرة » ، كذلك كان من أهداف ابن نصير الاتجاه شرقاً بعد إتمام فتح فرنسا ، والاستيلاء على روما أو القسطنطية ، وأمنية المسلمين فى فتح القسطنطينة ، معقل الروم ، أمنية قديمة ملحة ، فقد تكررت المحاولات لفتحها من جهة المشرق ، غير أن مناعة أسوارها ، وموقعها الحصين ، حالا دون الاستيلاء عليها [٢] .

خشى الخليفة الوليد بن عبد الملك من أن يغتر موسى بنصره ، فيغرر بالمسلمين فى أرض واسعة ، وطريق وعر ، لم يقطعه فاتح من قبل . فلم يحدث أن اخترق أوربا جيش موحد من أقصى الغرب فى شبه جزيرة أيبريا إلى

---

(١) عبرت المراجع العربية عن جبال البرانس باسم جبال البرت (راجع تقويم البلدان ص ١٦٩)

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٠٨ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١١ ، العبادى ص ٥٣ ، العدوى : الدولة الإسلامية والإمبراطورية الروم ص ٦٥ — ٧٠ ، أسد رستم : الروم حـ ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٦ ، أومان : الإمبراطورية البيزنطية — ترجمة بدر — ص ١٤٥ — ١٤٨ ، C. Med H, Vol. IV P. 3 Vassilies, of Cit. P. 235 .

شاطىء البحر الأسود ، دفعة واحدة ، ومن ثم استدعى موسى ومولاه طارقاً إلى المشرق(١) .

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبدالعزيز (٩٥ هـ/ ٧١٣م) وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن أخت عقبة بن نافع « وزيراً له ، ومعيناً » ، اتخذ عبد العزيز أشبيلية قاعدة للإمارة ، وفتح الجزء الجنوبي الشرقي من من أسبانيا . وتذكر المراجع أنه تزوج من أرملة لوذريق ، وهي أيله Egilone أو أيلونا التي كنيت بأم عاصم ، حظيت عنده هـذه الزوجة ، حتى أغرته بأن يأخذ أصحابه بالسجود له ، فرفض لأن ذلك يخالف الإسلام فما زالت به حتى فتح باباً قصيراً لمجلسه ، فكان الداخل عليه من هذا الباب يضطر إلى طأطأة رأسه ، حتى يصير كالراكع ، فرضيت بذلك . ثم أغرته بعمل تاج من ذهب ، وأخيراً ثار عليه المسلمون وقتلوه عام ٩٧ هـ/ ٧١٦م ، إذ دخل عليه زياد بن عذرة البلوى في مسجد أشبيلية وعلاه بالسيف قائلا : « قد حقت عليك يا ابن الفاعلة » ، ويقال إن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله ، فقتلوه (٢) .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٩ ، ٢٩ ـ ٣٠ ، نفح الطيب حـ ١ ص ٢٦٤ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ابن القوطيـــة ص ٣٦ ، ٢١٣ ـ ٢١٧ ، العبادى ص ٥٣ ، De Marlès, PP. 110 - 111 ; Scott. I, P P. 254 - 56.

(٢) ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٠ ـ ٣٢ ، نفح الطيب حـ ١ ص ٢٦٣ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ٨ ـ ٩ ، أخبار مجموعة ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ، ابن القوطية ص ٣٧ ـ ٣٨ ، ١٧٩ ـ ١٨٢ ، فجر الأندلس ص ١٢٩ ـ ١٣٣ ، Lévi - Prov T. I, PP. 33 .. 4 ;

ظلت فكرة عبور البرانس إلى الأرض الكبيرة ، تراود قادة المسلمين فى أسبانيا ، حتى كانت ولاية السمح بن مالك الخولانى عام ١٠٠ هـ / ١٧٩م وكان مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز . والسمح من أفاضل عرب أفريقية ، ومن خيرة الولاة الذين تولوا أمر الأندلس(١) . وبولايته ، عاد الحماس إلى الجند الإسلامى ، وكان قد فتر على أثر استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وما لحق بهما فى دار الخلافة (٢) .

والسمح هو الذى نقل العاصمة الإسلامية فى أسبانيا إلى قرطبة ، بعد أن كانت فى طليطلة — عاصمة القوط القديمة — ثم أشبيلية — زمن عبد العزيز بن موسى — ، واستمرت قرطبة عاصمة الأندلس حتى نهاية الدولة الأموية فى الأندلس ، وتقع هذه المدينة على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير Guadalquivir (٣) .

حقق السمح الفكرة التى دارت برأس موسى بن نصير من قبل ، وقام على رأس جيشه فى عام ٧٢١ م وفتح إقليم سبتمانيا Septemania ، وهى منطقة ساحلية تمتد من البرانس غرباً إلى مصب نهر الرون شرقاً ، وتتصل بما يعرف اليوم باسم الرفييرا الإيطالية(٤) . ثم هى تطل على البحر الأبيض

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ٢٢ ، Levi-Provencal; T. I, pp. 80 - 81

(٢) ابن القوطية ص ٣٦ ، ١٥٩ — ١٦١

(٣) انظر الروض المعطار ص ١٥٣ — ١٥٨

(٤) فجر الأندلس ص ٢٤٩

جنوبى فرنسا ، وعرفت بهذا الاسم لاشتمالها على سبع مدن أو سبعة أقسام إدارية(١) . كذلك عرفت منطقة سبتمانيا باسم « جوثيا » Gothia نسبة إلى القوط . إذ كانت من بقايا مملكة الغربيين . وكان يتحكم فيها يومئذ جماعة من نبلاء القوط . وعاصمتها أربونة Narbonne (٢) .

استولى السمح على هذه العاصمة بعد حصار دام شهراً . وذلك عام ٧٢١ هـ . وغنم المسلمون الكثير من الأموال والتحف ، ويرجع أغلب هذه الكنوز والتحف إلى رجال الدين الذين هربوا من أسبانيا ، عقب الفتح الإسلامى لها . فقد حملوها معهم وأودعوها المؤسسات الدينية فى هذه المدينة وغيرها (٣) . وساعد على سقوط أربونة فى يد المسلمين ؛ أنها مفتوحة من جهة البحر ؛ فتيسر وصول الإمدادات إلى القوة المحاصرة من أسبانيا .

اتخذ السمح أربونة قاعدة لعملياته الحربية فى فرنسا ، ودعم حصونها وشحنها بالحاميات . ولا يزال يوجد بهذه المدينة شارع ينسب إلى السمح يعرف باسم شارع السمح Rue de Zama (٤) . وكذلك أقام السمح الحاميات فى المدن المجاورة(٥) .

---

(١) راجع ماسبق .

(٢) انظر الروض المعطار ص ١١ـ١٢ ؛ تقويم البلدان ص ١٤٧

(٣) Scott, I; p. 276

(٤) أرسلان . غزوات العرب ص ٦٣ـ٦٤

(٥) العرب والإسلام ص ١١٠ـ١١٣ ؛ Pirenne, p. 156 ; Lane-Poole, Op.Cit. P. 25

تتبع السمح مجرى الجارون واتجه غرباً . وفتح جميع ما صادفه من المدن والحصون مثل بيزي Beziers وماجلون Maguelonne . وهذه المدينة الأخيرة عرفت باسم « ثغر المسلمين » Part Sarrasin(١) . ثم فتح قرقشونة Carcassonne وسار حتى وصل إلى طولوشة Toulouse عاصمة أكويتانيا . غير أن طولوشة قاومت الحصار الذى ضربه السمح حولها . كما نصب حولها المنجنيقات . ظلت هذه المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود Eudes الفرنجى . حاكم أكويتانيا(٢) . على رأس جيش ضخم . وأخذ السمح يشد من أزر رجاله ، ويقرأ قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

وقعت معركة عنيفة ، أصيب فيها السمح بطعنة قضت عليه أواخر عام ١٠٢ هـ / ٧٢١ م (٣) ؛ ففت ذلك عضد الجند ، وحينئذ ارتدوا عن

---

(١) Deanesly; p. 286

(٢) الدوق أود حاكم أكويتانيا من سلالة الفرنجة الميروفنجيين ملوك فرنسا ، وكان شبه مستقل بدوقيته أما ملوك الفرنجة المعاصرون لهذه الفترة التى تم فيها فتح أسبانيا وفتح جنوبى فرنسا منهم :

شلدبرت الثالث Childebert III (٦٩٤–٧١١ م) ويحكم فى نستريا ، داجوبرت الثالث Dagobert III (٧١١–٧١٥ م) ويحكم فى نستريا ، شلريك الثانى Chilperic II (٧١٥–٧١٨ م) فى نستريا ثم فى كل فرنسا (٧١٩–٧٢١) ، تيرى الرابع Theirry IV (٧٢٠–٧٣٧ م) على كل فرنسا ، شلديك الثالث Childeric III (٧٤٣–٧٥١ م) وهو آخر ملوك الميروفنيين .

(انظر H. G. T. 1, P. 468 ; Deanesly, P. 283 Pirenne, P. 156

(٣) نفح الطيب (الطبعة الجديدة) جـ ١ ص ٢١٩ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٣٤–٣٥

طولوشة . وكان رجال الدين المسيحيون قد أثاروا حماس مواطنيهم ضد المسلمين ، ويقال إنهم حجبوا مواطنيهم بالتعاويذ والأحجبة التى باركها البابا ، وليس صحيحاً ما ذكره بعض المسيحيين من أن أحداً لم يقتل ممن يحمل تلك الأحجبة (١) .

جاءت وقعة طولوشة ، أول نكسة للعرب فى أوربا ، فعادت فلول الجيش الإسلامى بقيادة عبد الرحمن الغافق الأزدى إلى قاعدة أربونة ، وكان استيلاء المسلمين على طولوشة يمكنهم من التحكم فى وادى نهر الجارون وفى الحدود الشمالية لمقاطعة غشقونيا Gascony (٢) .

خلف السمح على إمارة أسبانيا ، عنبسة بن سحيم الكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل أفريقية . عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م ، وواصل أمر الغزو فى فرنسا الجنوبية ، غير أنه لم يسر فى الاتجاه الذى سلكه السمح ، بل سار على الساحل حتى وصل إلى نهر ردونة Rhodonus (الرون) ، وأعاد الاستيلاء على بعض البلاد مثل قرقشونة ، وهذه صالحه أهلها على نصف أعمالها ، وعلى جميع من فيها من أسرى المسلمين ، وتعهدوا بدفع الجزية والالتزام بأحكام أهل الذمة ، من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه . ثم أخذ منها عنبسة بعض الرهائن ؛ وأرسلها إلى برشلونة (٣) .

---

(١) Scott, P. 277

(٢) Deanesly P. 286

(٣) نفح الطيب (الطبعة الجديدة) حـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ؛ ابن الأثير حـ ٥ ص ٥٤ ؛
Levi .. Pravencal, I pp. 58 .. 59

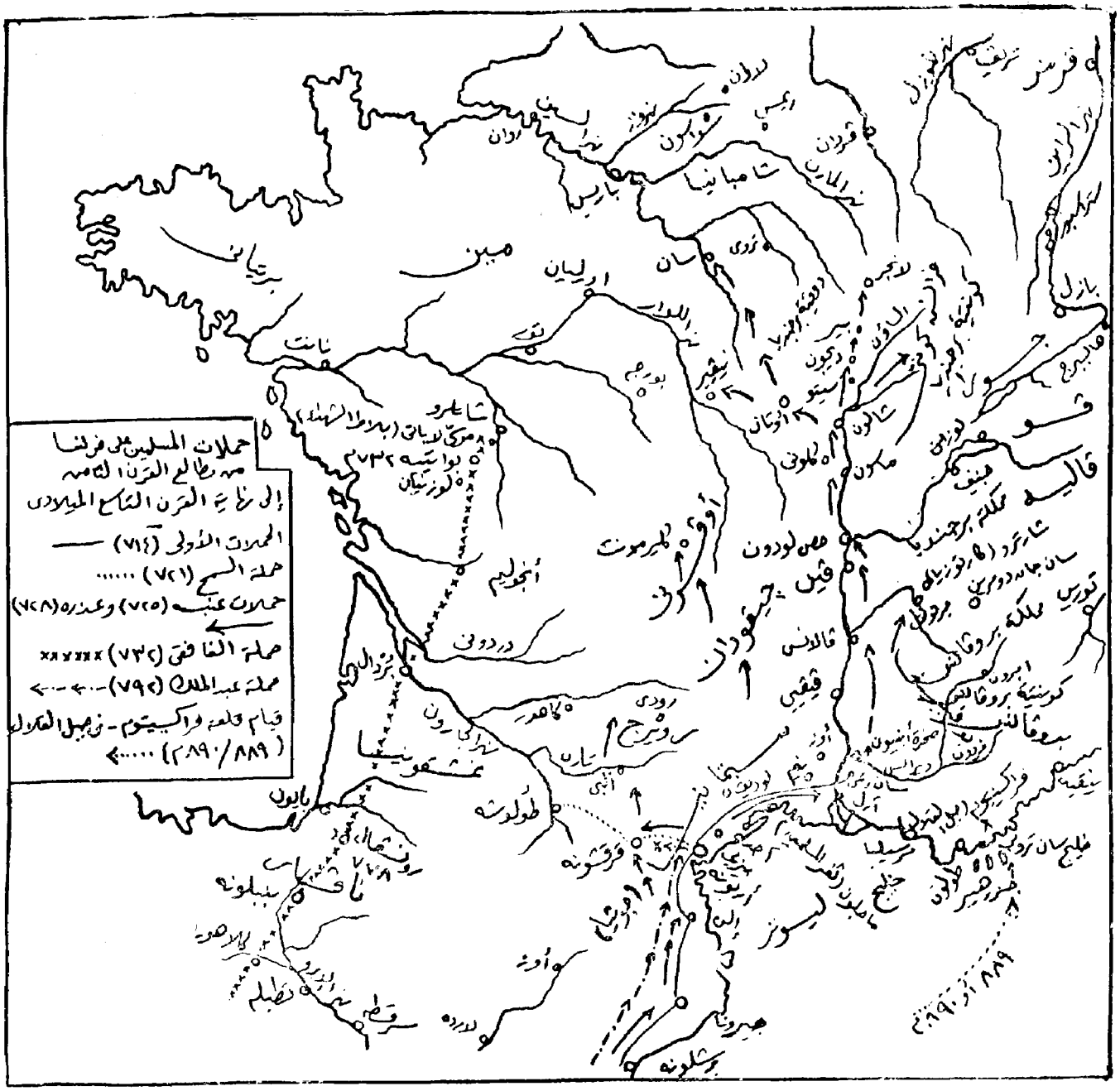
حملات المسلمين على فرنسا
منذ نشأتها في القرن الثامن الميلادي
إلى نهاية القرن التاسع الميلادي
الحملات الأولى (٧١٤) ——
حملة السمح (٧٢١) .....
حملات عنبسة (٧٢٥) وعذرة (٧٢٨)
حملة الغافقي (٧٣٢) xxxxxx
حملة عبد الملك (٧٩٢) -·-·-·-
قيام قلعة فراكسينوم - في جبل الفارول
(٨٨٩/٨٩٠م) .....
فرنسا
مبين
برشلونة
سرقسطة
نابل
سوسة
صقلية
سردانية
كورسيكا
بروفانس
ليون
بيزا
جنوة
البندقية
فلورنسا
روما
نابولي
بنفنتو
سالرنو
أمالفي
جايتا
مونتي كاسينو
بافيا
ميلانو
فيرونا
بادوا
ترفيزو
أكويليا
ريمس
باريس
شارتر
أورليان
تور
بواتييه
بوردو
تولوز
نيم
آفينيون
مرسيليا
أرل
فريجوس
طولون
نيس
جنوة
بيزا
سينا
أورفييتو
تارنتو
بنفنتو
سالرنو
أمالفي
جايتا
مونتي كاسينو
كابوا
نابولي
روما
بيزا
لوكا
بافيا
ميلانو
فيرونا
بادوا
ترفيزو
أكويليا
البندقية
فلورنسا
سينا
أورفييتو
تارنتو
بنفنتو
سالرنو
أمالفي
جايتا
مونتي كاسينو
كابوا
نابولي
روما

واجتاح العرب بعد ذلك مقاطعات نيم Nimes و پي Puy وكليرمونت Clermont (١)، ولما اقتربوا من دير موناسيتي Monastier فى منطقة فالى Valey ، جمع رئيس الرهبان ، وهو القديس شافر St. Chaffre ، رهبانه وأمرهم بالفرار بنفائسهم إلى الغابات المجاورة ، وظل هو بالدير على أمل هداية الغزاة . أولعله يكون فى تضحيته بنفسه خلاص لرعيته ، وأن يسكن الغضب الإلهى الذى حل بسبب أخطاء البشرية . فلما وصل العرب إلى الدير ، لم يجدوا به سوى هذا القديس ، فضربوه وتركوه . فمات بعد قليل ، ويحتفل بعيد هذا القديس فى ١٩ أكتوبر من كل سنة (٢).

استمر عنبسة فى زحفه الظافر ، وأغار على منطقة دوفينى Dauphine وعاصمتها جرنوبل ، كذلك أغار على برجنديا ، وعلق بعض المعاصرين على هذه الغزوة الكاسحة ، بأن الله قذف فى قلوب الكفار الرعب . فلم يتصد أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الأمان (٣).

اجتاح العرب بعد ذلك مدينة أوزه Uzes وفيين Vienne ، ونواحى فالنسى ووصلوا إلى مدينة ليون Lyon ، ويسميها العرب «حصن لودون» (٤)

---

(١) ارتبطت مدينة كليرمونت بالحروب الصليبية منذ أواخر القرن الحادى عشر حين عقد البابا أربان الثانى فيها المجمع المشهور عام ١٠٩٥ م وهو المجمع الذى تقررت فيه الدعوة إلى الحروب الصليبية .

(٢) أرسلان : غزوات العرب ص ٧٦–٧٧ ، Demarles, PP. 127..130

(٣) أرسلان ص ٧٧ (عن رينو)

(٤) Lévi ·Provencal, T. I, P. 54

وكذلك زحفوا على مدينة ماسون Macon وشالون Chalon ، والأخيرة على نهر السامون (١). وأخضعوا بعد ذلك مدينة بون Bon ، وتقع على بعد ٣٨ كم إلى الجنوب الشرقى من ويجون ، ووصلوا فى تقدمهم إلى مدينة أوتان Outun فى أعالى الرون ، وغنموا الكثير من كنوز الكنائس والأديرة ، وبعثوا بسراياهم إلى جهات اللور ونيفير Nevers ثم كونتية برجنديا التى عرفت فيما بعد باسم فرانش كونتى France Conte (٢)، ولاتزال آثار عربية وأسماء عربية توجد إلى اليوم فى فرانش كونتى (٣) .

لم يجد المسلمون مقاومة إلا فى مدينة سانس Sens ، الواقعة على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبى باريس ، ومدينة سانس عاصمة إقليم يوند Yonnd ، وفيها تصدى إيبون Ebbon أسقف المدينة ، للزحف الإسلامى ، واستعد له من قبل ، فحصن المدينة وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا فى وقف الزحف العربى (٤) .

ويبدو أن عنبسة بن سحيم الكلبى ، أدرك بعد هذا التقدم الظافر، الذى جعله يقترب من باريس ، أنه توغل فى قلب فرنسا أكثر مما ينبغى ، فخشى ألا يستطيع تأمين خطوط عودته ، ثم إنه سمع فى ذلك الوقت بانبعاث العصبية فى أسبانيا، ووقوع الخلاف بين العرب والبربر. ولو لم تجتمع هذه

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٤٧

(٢) Brooke, P. 95

(٣) أرسلان ٧٩

(٤) فجر الأندلس ص ٢٤٧ ؛ أرسلان ص ٧٩ ـ ٨٠

الأحوال فى ذلك الوقت ، لما انصرف عن فتوحه الموفقة فى غالة ، بعد أن أدرك هذا النصر العظيم (١) .

لم يكن عنبسة حذراً فى طريق عودته ، فداهمته جموع كبيرة من الفرنجة والتحم معها فى وقعة أصيب فيها بجراح بالغة ، توفى على أثرها فى شعبان ١٠٧هـ/ ديسمبر ٧٢٥م (٢) ، فعادت فلول الجيش الإسلامى بقيادة عذرة بن عبد الله الفهرى إلى أربونة (٣) .

وقد خلف عذرة الفهرى عنبسة فى ولاية الأندلس، قدمه أهل الأندلس عليهم حتى جاء الوالى المعين من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك وظل عذرة فى ولاية الأندلس سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧هـ — ربيع أول ١١٠هـ / فبراير - مارس ٧٢٦ - يونيه / يوليه ٧٢٨م)(٤) .

واصل عذرة جهاد سلفه فى بلاد غاله . وبعد أن جاءته الأمداد من الأندلس . اقتحم سبتمانيه مرة أخرى . ودخل حوض الرون . وغزا

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٢) فجر الأثير حـ٥ ص ٥٤ ؛ ابن عذارى حـ ٢ ص٣٦ ؛ فجر الأندلس ص ٢٥٤

(٣) تشير المراجع الأجنبية إلى عذرة هذا باسم Hodera أو Hodeyra (راجع De Marlès, pp. 127 .. 30 ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ١٠٩ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٧ ؛ العبادى ص ٥٦ ؛ فجر الأندلس ص ٢٥٤ ؛ المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ٦٧ ؛ العرب والإسلام ص ١١٧ — ١٢٠

(٤) كان الوالى المعين على الأندلس من قبل الخليفة هشام : يحى بن سلمة الكلبى (انظر ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٧ ؛ أعمال الأعلام ص ٦ ؛ العرب والإسلام ص ١٢١)

الألبيين Les Allbegeois واقتحم إقليم رويرج Le Rouergue وجيفودان Gevaudan وليفليه Levelay واحتل حصن روكبريف Roqueprive فى مقاطعة رودس Rhodes . وفى هذه المنطقة انضم إليه عدد كبير من أهلها وزحفوا معه . فاتسع مجال الغزو والهجوم (١) .

وقد بالغ رينو Rein aud فى وصف تخريب العرب واعتداءاتهم على الكنائس والأديرة . والثابت المعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة ، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التى كانت تسود غالة فى تلك الحقبة ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين وبرجنديين ومن إليهم يتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . هذا وقد أشارت النصوص التى وردت بالمراجع اللاتينية إلى أن الذين خربوا هذه الأماكن وغيرها هم الوند Uandes والوندال Uandali والجندال Gandali . فجاء مؤرخو الكنيسة وقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين . مما يدل على التعسف وعدم الدقة . ولاسيما أن هذه التسميات بعينها . أطلقت بعد ذلك على المجرمين الذين خربوا هذه النواحى زمن شارل مارتل وبيبين وشارلمان . ولو أن رينو عاد بعد ذلك وتشكك فى أن المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخريب (٢)

---

(١) أرسلان ص ٧٣ — ٧٧ (عن رينو) ، فجر الأندلس ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ؛ العرب والإسلام ص ١٢٠ — ١٢١

(٢) من هذه المراجع : Lecointe, P., Annales Ecclesiastica Francoum, IV, PP. 728 sqq., 795, sqq.; Mabillon, Acta Sanctorum Benedictini, II, PP. 527, Sqq. (عن فجر الأندلس ص ٢٥٨ — ٥٩)

بل إن الفرنجة أنفسهم ، بقيادة عاهلهم الأكبر وهو قارله (شارل مارتل) نهبوا الكنائس واستولوا على كنوزها وخربوها فيما بعد وقعة تور (١) .

* * *

وقف أمر الغزو عند هذا الحد . حتى ولى الأندلس عبد الرحمن ابن عبدالله الغافقى (١١٢ - ١١٤ هـ / ٧٣٠ - ٧٣٢م) . وكانت ولايته للأندلس من قبل والى أفريقية عبيد الله بن الحجاب . والغافقى هو الذى كان قد ولى أمر الجيش الإسلامى بعد ما حاقت الهزيمة بالسمح بن مالك الخولانى فى وقعة طولوشة عام ١٠٣هـ/ ٧٢١م ونجح فى الانسحاب الأمين (٢) .

والغافقى معروف بالشجاعة وقوة الشكيمة وحسن القيادة . وربما كان أقدر قائد عسكرى عرفته الأندلس فى عصر الولاة ، غير أن الظروف لم تتكافأ مع عبقريته الحربية ، وكانت وقعة طولوشة قد تركت أثراً شديداً فى نفسه ، فعلمته الحذر والحيطة ، كما أشعلت الحماس فى قلبه للثأر لما أصاب المسلمين من هزيمة (٣) .

---

(١) Scott, 1,P. 311 ، انظر ما يلى ، وانظر العرب والإسلام ص ١٣٣ ـ ١٣٤

(٢) تولى أمر الأندلس بعد عذرة فى الفترة ـ مابين وفاته ١١٠ هـ / ٧٢٨ م إلى ولاية الغافقى عام ١١٢ هـ / ٧٣٠ م خمسة ولاة هم : يحى بن سلمة الكلبى ثم حذيفة بن الأحوص القيسى ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، ثم الهيثم بن عبيد الكلابى ثم محمد بن عبد الله الأشجعى الذى ولى شهرين خلال عام ١١١ هـ (ابن عذارى حـ ٢ ص٣٧ ـ ٣٨ ، ابن القوطية ص ٣٩ ، ١٣٩ ، أعمال الأعلام ص ٦ ، نفح الطيب حـ ١ ص ١٠٩)

(٣) العبادى ص ٥٦ ، فجر الأندلس ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ ، Scott, I, ; PP. 892 .. 6

استعد استعداداً كبيراً لغزو فرنسا . وأعلن الدعوة للجهاد الإسلامى فى سبيل الله . وأعلن هذه الدعوة فى أفريقية ، كما أعلنها فى الأندلس، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحية ، وتجمع لديه عدد ضخم من القوات (١) وبدأ تحركه بعبور جبال ألبرت فى أوائل سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م .

وفى الأرض الكبيرة ، استعد أود Eudes دوق أقطانية(أكويتانيا)للقاء العرب . وكان هذا الدوق خلال السنوات العشر الأخيرة السابقة لوقعة بلاط الشهداء (٧٢١ - ٧٣٢م) قد دأب على حماية دوقيته بشتى الوسائل. منها إثارة الخلاف بين العرب والبربر فى أسبانيا ، ومنها عقد زيجة سياسية مع الزعيم البربرى عثمان بن أبى نسعة Neza - ويسميه الفرنج تسمية محرفة هى مونوزة Munuza (٢) الذى ولى الأندلس فترة قصيرة تقدر بنحو خمسة شهور أو ستة خلال عام ١١٠ هـ ، وهو مشهور بالبسالة والنجدة فى الحروب ، غير أن أصحابه حقدوا عليه ، فسعوا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م) فعزله ، وولى بعد عزله حكم منطقة البرانس ، وكان يعرف بأمير الثغر ، والمقصود بالثغر مدينة الباب ، الواقعة فى أحد ممرات جبال البرانس ، ويظن أنها مدينة بى سردا Puy Cerda أو مدينة شرطانية Cerd ana أو Cerrit ania غربى

---

(١) قيل إن القوات التى تجمعت للغافقى بلغت مابين ٧٠ إلى مائة ألف مقاتل (فجر الأندلس ص ٢٦٣)

(٢) Deanesly, P. 286 ؛ أرسلان ص ٨٦ حاشية ٢ العرب والإسلام ص ١٢٧ — ١٢٨

إقليم روسيون Rousillon قرب بى سرده . وهذه تابعة لأسبانيا ، وفى شمالها حصن يظن أنه كان مقرا لأمير الباب من قبل المسلمين (١)

كان ابن أبى نسعة ، قد أسر ابنة الدوق أود فى إحـــدى غزواته ، واسمها نيمورانس Numerance أو منين Minine أو لامبيجى Lampégie ، وقـــد تزوجها وهادن الدوق وأمنه من غارات المسلمين ويقال إنه كان لايفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها ، وذلك لفرط جمالها (٢) ،وتشبه هذه الزيجة زيجة عبد العزيز بن موسى بن نصـــير من أرملة لوذريق ، على أنه يغلب على رواية زواج ابن أبى نسعة من ابنة أود أنها موضوعة (٣)

ولذلك ، عندما صدر أمر عبد الرحمن الغافقى لأمير الثغر بمحاربة الدوق، حاول ابن أبى نسعة أن يؤجل الحرب لارتباطه بالدوق بالمصاهرة والعهد الذى بينهما،عرف عبد الرحمن زواجه من ابنة الدوق وأفهمه بأن العهد الذى عقده معه دون علمه لا يلزمه ، وعليه أن يتحرك للجهاد دون مراجعة . فلم يسع ابن أبى نسعة إلا أن نبه صهره للخطر الذى يوشك أن يداهمه ، وأظهر عصيانه ، وحينئذ أرسل الغافقى جيشا بقيادة ابن زيان ، للقبض على أمير الثغر ، الذى هرب مع أنصاره وزوجته إلى الجبال ، تتبعه الجيش وقبض عليه وقتله واجتز رأسه وأرسله إلى عبد الرحمن (٤) ، وكذلك

---

(١) أرسلان ص ٨٨ حاشية ٥ ، Ozy, I ; Deanesly, P. 286

(٢) أرسلان ص ٨٨ حاشية ٥

(٣) انظر العرب والإسلام ص ١٢٥ ، ١٢٧ — ١٢٨ ؛ Lévi Prov. I. PP. 60 .. 1

(٤) Deanesiy, P 286

إليه زوجة القتيل ، ويقال إن عبد الرحمن الغافقى صاح عندما رآها ، وقد هاله جمالها : « والله ما كنت أظن أن يوجد مثل هذا الصيد فى جبال ألبرت » وأرسلها هدية إلى الخليفة هشام بدمشق حيث تزوجها (١)

كان القضاء على أبى نسعة وثورته فى عام ٧٣١ م (٢) ومن ثم تحرك الغافقى لغزو فرنسا . وعبر جبال ألبرت فى أوائل صيف عام ٧٣٢ م من ممرات رونسفالة (٣) . واتجه شرقا . فى جنوبى غالة ، ليضلل الفرنجة عن وجهته الحقيقية . وهى دوقية أكويتانيا . وأخضع مدينة أرل Arelatum التى خرجت عن طاعة المسلمين وتوقفت عن دفع الجزية (٤) وبعد أن تم له ذلك وأمن ظهره . اتجه نحو الغرب لمداهمة دوقية أقطانيا . واجتاح فى طريقه غشقوينا Gascony والتقى بالدوق عند التقاء الجرون بنهر دوردنى Dordogne . وانتصر انتصارا كبيرا على الدوق . وكان عدد قتلى الفرنجة فى هذه الوقعة أكثر من أن يحصى (٥) . حتى قال المؤرخ إيزيدور الباجى Isidoro Pacense : إن الله تعالى وحده هو القادر على إحصائهم . (٦)

---

(١) أرسلان ص ٨٨ ـ ٨٩ ؛ انظر فجر الأندلس ص ٦٨ ، ١٠٦ ، ٢٥٠ ـ ٢٥٢

(٢) Deanesly, P. 286 ; De Marlés PP. 130 ... 136

(٣) انظر ما يلى

(٤) فجر الأندلس ص ٢٦٥ ; Albert, PP. 8 .. 17

(٥) Scott, I, P. 297

(٦) عبارة لإيزيدور : " Deus Numerum morientum Vel Pereuntium recognoscat. "

(عن فجر الأندلس ص ٢٦٦ حاشية ١)

تقهقر الدوق عن عاصمته بردال Bordeoux . ومضى الغافق فى طريقه متتبعا مجرى نهر الجارون . واكتسح فى طريقه جميع ما صادفه من عقبات. حتى استولى على بردال بعد مقاومة قصيرة (١) ودخلها ونهبها (٢) . واندفع المسلمون شمالا فى السهل المتسع الذى يحده شمالا نهر اللوار وجنوبا نهر الجارون . ووصلوا إلى مدينة بوايتيه ؛ ونهبوا كنيسة القديس هليرى St. Hilary . ثم استعدوا لنهب كنيسة القديس مارتن St. Martin فى تور Töuro (٣) . ثانى مدن الدوقية . بعد العاصمة بردال (٤)

ولما بدا عجز الدوق أود واضحا ، استصرخ بقارله (شارل مارتل) حاجب قصر الميروفنجيين . وكان قارله ابن بيبين هرستال صاحب الأمر والنهى فى دولة الفرنجة الميروفنجيين ، الذين ضعفوا فى ذلك الوقت . إن ضعفهم بدأ منذ وفاة الملك داجوبرت الأول Dagobert I (٦٢٩ — ٦٣٩ م) حتى اشتهر الملوك الذين خلفوه باسم « الملوك الضعفاء » . أما ملك الفرنجة (٥) المعاصر فى ذلك الوقت فهو تيرى الرابع Thiery Iv (٧٢٠ — ٧٣٧ م) .

---

(١) Scott, I, P. 297

(٢) فجر الأندلس ص ٢٦٦ ؛ De Marlés, P. 139 ; Lévi .. Grovercal, I. PP. 60 .. 61

(٣) Deanesly P. 286

(٤) فجر الأندلس ص ٦٦

(٥) Mott & Dee , Middle Ages, PP. 28 .. 32 ; راجع ما سبق عن الفرنجة Scott. I, PP. 299 .. 303,

لى قارله النداء . وكان من قبل لا يلتفت جديا لحركات العرب فى جنوب فرنسا ، نظرا للخلاف الذى بينه وبين دوق أكويتانيا ومطامع شارل فى الدوقية ، وقد أورد المقرى نصا . لتعليل تردد شارل قبل هذا التاريخ ، قال :

« اجتمعت الفرنجة إلى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سمة لملكهم . فقالت له : ما هـذا الخزى الباقى فى الأعقاب ! كنا نسمع بالعرب . ونخافهم من مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم »

فأجابهم بما معناه :

« الرأى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر .. »

قال المقرى : « فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين (١) ، والبربر والعرب ، والمضرية واليمنية ، وصار بعض

---

(١) المقصود بالبلديين العرب القدماء الذين جاءوا من المدينة بصفة خاصة ومن الحجاز بصفة عامة وأسهموا فى الفتح الأول ، واستقروا فى المناطق الخصبة الجنوبية من أسبانيا ، لأنهم السابقون فى الفتح والاستقرار ، وعرفوا بالبلديين تمييزا لهم عن الهجرات التى طرأت على الأندلس بعد ذلك (العبادى ص ١٥٨ ، فجر الأندلس ص ٣٥٦)

المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء » (١)

أدرك شارل مارتل أن خطر المسلمين أصبح مباشراً على مملكة الفرنجة بعد أن تقدموا هذا التقدم فى فرنسا . واجتاحوا معظم أكويتانيا . وأدرك حاجب قصر الفرنجة كذلك أن العرب سوف لا يقفون عند حد إخضاع دوقية أكويتانيا . لذلك استجاب إلى نداء الدوق، وأنهى حروبه ضد الفريزيين Frisii والسكسون والبافاريين .

كان الجيش الإسلامى يختلف عن جيش شارل من حيث السلاح والزى والفن الحربى (٢) . والتقى الفريقان فى المعركة المشهورة بين مدينتى تور وبوايتيه . على مسافة ٧٠ كم جنوبى نهر اللوين . كان عبد الرحمن الغافقى قد حاصر تور واستولى عليها ودخلها عنوة على مشهد من جيش أعدائه (٣) .

استمرت المعركة ثلاثة أيام أو سبعة . ورغم تفوق جيش الفرنجة من حيث العدد إلا أن الروح المعنوية فى الجيش الإسلامى تفوق نظيرتها عند الفرنجة، أحسن العرب البلاء فى القتال . لولا وقوع أمر أدى إلى هزيمتهم، ذلك أن دوق أكويتانيا عرف نقطة ضعف فى الجيش الإسلامى ، وعمل على استغلالها ، وهى شدة حرص العرب على الغنائم التى ظفروا بها ،

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٩

(٢) انظر : تاكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة المؤلف) ص ٥٠ ـ ٥٣ ، ٦٠ ـ ٦١ ، العبادى ص ٥٧ ـ ٥٨

(٣) أرسلان ص ٩٠ ؛ De Marlès PP. 140 - 142

وحملوها معهم ووضعوها وراء خطوطهم(١) أراد الدوق أود أن يشغل المسلمين بغنائمهم ، وكانوا مثقلين بها ، لعل ذلك يخل بنظامهم فى أثناء القتال فقام بحركة التفاف سريعة وهاجم مؤخرة الجيش العربى حيث توجد الغنائم ، ولقد كان ما أراد الدوق ، فقد اختل نظام الجيش الإسلامى ، بأن تراجع جانب منه لإنقاذ الغنائم ، بينما بقى الجانب الآخر يقاتل .

حقيقة ، فكر عبدالرحمن الغافقى فى أمر الغنائم من قبل أن يقوم الدوق بحيلته، فى أول المعركة، أوشك أن يأمر جيشه بتركها ، لكنه خشى بطش الجيش وتقاعسه وغضبه . فأذن له فى حفظها وهو كاره . فلما رأى عبدالرحمن وقوع الخلل بسبب حركة الدوق أود ، حاول أن يصلح الأمر ؛ فتعرض للقتال أكثر مما يجب . وقتل فى المعركة . وذلك فى رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م (٢) .

وبذلك أمسى الجيش الإسلامى من غير قائد . ففت هذا فى عضد الجند وأخذه أعداؤه من كل جانب حتى قتل عدد كبير من المسلمين ، وعادت فلوله مستترة تحت جنح الظلام فى غير نظام ، تريد النجاة . ولما أصبح شارل مارتل . لم يجد أمامه جيشاً يقاتله . فاكتفى بذلك ولم يطارد الجيش المنهزم

---

(١) Scott. I, PP. 304 .. 305

(٢) العبادى ص ٥٩ ، نفح الطيب حـ ١ ص ٢٢٠ (الطبعة الجديدة) ، العرب والإسلام ص ١٢٨ — ١٣٤ ، أرسلان ص ٩١ ، فجر الأندلس ص ٢٧٤ — ٢٧٥

Deanesly P. 286 ; Lane Poole. op, Git PP. 29..30. Pirenne. A History of Europe. P. 64 ; Lévi Provencal. I. PP. 61-62. Pirenne Moh. & chal. P. 156.

إذ خشى أن تكون مكيدة مدبرة لجره إلى كمين ، على عادة العرب ولذلك اكتفى بهذا النصر وعاد إلى بلاده .

هذه هى وقعة «بلاط الشهداء» وسميت كذلك لكثرة من استشهد فيها من المسلمين . ومكانها هو المعروف اليوم باسم Moussais - la. Bataille والمقصود بلفظة «بلاط» فى مصطلح مسلمى الأندلس : قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية بلاتيوم Palatum ، وعلى هذا ، فبلاط الشهداء معناها : قصر الشهداء مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير (١) .

وقد بالغ المسيحيون فى تقدير عدد القتلى من المسلمين ، حتى أوصلهم فشر Fisher مثلا ، إلى ٣٧٥ ألف ، نقلا عن بولس الشماس (٢) . وهذا بطبيعة الحال غير معقول . فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد أو ما يقاربه ، على كثرة الحروب القائمة فى ذلك الوقت ، فضلا عن صعوبة التموين والمواصلات .

على أن وقعة بلاط الشهداء تعتبر فاصلة فى التاريخ العام ، من وجهة النظر الأوربية . فقد ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير . وقد عرض أكثر من مؤرخ لهذه الوقعة . فقال جيبون Gibbon إنه لو انتصر العرب فى تور بوايتيه لتلى القرآن وفسر فى أكسفورد وكمبردج . أما فشر Fisher

---

(٢) فجر الأندلس ص ٢٧١

(١) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٦٧ .

فقد قارن بين انتصار الفرنجة هذا على العرب وبين انتصار البيزنطيين على المسلمين عام ٧١٧ — ٧١٨ م وذكر أنه لو دخل العرب القسطنطينة لوجدوا بين مسيحى شرق أوربا ، مجالا للدعوة الإسلامية ، وذلك بالقياس إلى نجاح العثمانيين فى القرن الخامس عشر ، ولذلك يسهل تخيل نجاح المسلمين الدينى قبل العثمانيين بسبعة قرون . حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً يسيراً . ولا تدرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلا . على عكس غرب أوربا حيث اصطدم المسلمون بقوة مسيحية منظمة أركانها على شىء كثير من تراث الإمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم . ولو تم لهم النصر فرضاً فى تور . لظل بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلها إلى الإسلام ،عقبات دونها عقبات (١) .

لم تحل هذه الصدمة دون إعادة الكرة على فرنسا ، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف العرب عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرات أعقبها النصر والفتح . غير أن أهمية وقعة تور ترجع إلى أن العرب ارتدوا عن فرنسا ولم يحاولوا إخضاعها إخضاعاً تاما ، فضلا عن أن الأحداث فى هذا الجزء الغربى من العالم الإسلامى ارتبطت إلى حد كبير بالأحداث التى تقع فى مركز الخلافة فى شرقيه (٢) .

---

(١) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة زيادة والباز) ص ٦٦ — ٦٧ ،

(٢) العبادى ص ٦٠ .

أسرع والى أفريقية عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مددا بقيادة عبد الملك بن قطن الفهرى ، خلفا لعبد الرحمن الغافقى ، ثم بعث بخبر الفاجعة إلى الخليفة الأموى هشام (١٠٥ — ١٢٥هـ ٧٢٤ — ٧٤٣ م) وما فعله ، فأمره الخليفة بغزو فرنسا وأخذها بالسيوف من كل جانب ، توجه عبد الملك أول الأمر إلى نواحى شمالى الأندلس وهاجم قطالونيا ، وقاعدتها برشلونة ، وأرغون ونبره (نافار) ، ثم عبر البرتات ، واتجه إلى لانجدوك Lunguedoc — وهذه المنطقة عبارة عن كونتية تولوز ومارك جوثيا أوسبتمانيه — وحصن المعاقل التى لاتزال بأيدى المسلمين . وكانت سبتمانيه فى ذلك الوقت فى فوضى واضطراب بسبب الحروب المتوالية وهزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ، وحاول بعض زعمائها انتهاز فرصة هذه الاضطرابات وتوزيع البلاد فيما بينهم ، بعد أن تلاشى أمر الدوق أود ، وأدى ذلك إلى صراع بينهم مما جعل بعضهم يرتمى فى أحضان المسلمين خشية وقوعهم تحت سلطة قارله أو سلطة الدوق أود (١) .

والواقع أن أهالى جنوبى فرنسا ، رغم انتصارات قارله على المسلمين ، كانوا يكرهون الفرنجة لأنهم برابرة فى نظرهم ، على حين أن أهالى جنوبى فرنسا تشبعوا بالحضارة الرومانية . وكان هناك خلاف جوهرى بين جنوب فرنسا وشمالها ، فبينما تسود الجنوب حضارة البحر الأبيض اللاتينية والبيزنطية تسود الصبغة الجرمانية شمالى فرنسا (٢) ، وهذا سر عدم ولاء

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٢) Deanesly. P. 286

بروفانس والمواطنين فيها للفرنجة الجرمان ، وفضلا عن ذلك ، فإن قارله ، عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة التى كانت بحوزة المسلمين ، لم يردها على أهلها ، بل وزعها على رجاله ، وأكثر من ذلك ، لم تسلم كنوز الكنائس من نهب قارله وجنوده (١) . مما أغضب القساوسة وعامة الناس (٢) .

ويفسر هذا تحالف مورون Mauront ، الذى اتخذ لقب « دوق مرسيليا » مع المسلمين ، وكذلك أسقف أوكسير Oukser وغيرها ، وكان دوق مرسيليا يتحكم فى أغلب إقليم بروفانس (٣) .

اتفق دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى أربونة (٤) وزحفا معاً وعبرا نهر ردونه (الرون) واستوليا على أرل Orelatum عام ٧٣٥ م (٥) ، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة فرتا Fretta ، وهى المعروفة اليوم باسم سان ريمى St. Remi ، ثم تقدمت هذه الجيوش

---

(١) Scott. I. P. 311

(٢) فجر الأندلس ص ٢٧٧ .

(٣) Deanesly, P. 286

(٤) صار يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياعلى الأندلس فيما بعد (١٢٩ ـ ١٣٧ هـ / ٧٤٦ ـ ٧٥٤) وفى عهده كثرت الثورات والاضطرابات (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ ـ ٥٦ ، فجر الأندلس ص ٢٢٠ وما بعدها) .

(٥) Pirenne Moh. Ch. P. 156

واستولت على أفينيون Avenionun ، وهى التى يسميها العرب « صخرة أبنيون » (١) ، وتعرف اليوم باسم أفنيون Avignon (٢) .

وصل المسلمون إلى نهر ديرانس Durance ، أحد فروع الرون ، وهو الذى تقع عليه مدينة أفنيون ، عند نقطة اتصاله بالرون ، وظل المسلمون يتحكمون فى بروفانس أربع سنوات ، لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيها (٣) .

أما قارله ، فقد زحف عام ٧٣٣م واستولى على لودون (ليون) Lyons (٤) ، وكان المسلمون قد تخلوا عنها بعد وقعة بلاط الشهداء كما تخلوا عن برجنديا . وفى عام ٧٣٥ م ، توفى الدوق أود ، ووافق قارله على أن يخلف هينود Hunaud ، أحد أبناء الدوق ، أباه فى منصب الدوقية ، مع تبعيته لشارل ، فاقسم هينود يمين الولاء له على النحو الإقطاعى ، إذ صار هينود فصلا أو تابعا Vassus لسيد الفرنجة ، علما بأن نظام التبعية الإقطاعية فى أوربا لم يكن قد نضج بعد (٥) .

اطمأن عبد الملك بن قطن الفهرى إلى نجاح قائده يوسف الفهرى ، فانصرف إلى تدعيم سلطان المسلمين فى إمارات جبال البرانس ، لكنه

---

(١) أرشيبالد لويس ص ١١٩ ؛ Scott. I. P. 309

(٢) Pirenne op. cit. P. 156

(٣) فجر الأندلس ص ٢٧٨ ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ٦٨ .

(٤) Scott.I. p. 309

(٥) Deanesly. P. 286

هزم ، فولى الخليفة ـ مكانه ـ عقبة بن الحجاج السلولى عام ١١٦ هـ ، ٧٣٤م ، والسلولى كما وصفه ابن عذارى « صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو وشدة، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام ويقبح له عبادة الأصنام ، فيذكر أنه أسلم على يديه ألف رجل » (١) .

لم يجد عقبة بن الحجاج السلولى ، فى تصرفات سلفه عبد الملك بن قطن الفهرى ، مايؤخذ عليه ، فعهد إليه بقيادة الخيالة وأرسله إلى الثغر ، وأخذ يعد العدة لعبور البرانس (٢) . واشتعل حماس المسلمين للثأر لوقعة بلاط الشهداء ، وحصنوا ما بأيديهم من مدن غاله ، فى لانجدوك Languedoc حتى ضفاف الرون ، وشحنوها بالمقاتلة ، ثم اجتاحوا منطقة دوفينى Dauphine شمالى بروفانس وضربوا مدينـــة سان بول تروا شاتو : St. Paul - Trois - Chateautx ، واستولوا عليها كما استولوا على مدينة دونزير Donzére وتابعوا زحفهم نحو الشمال ، واستولوا على فالانس Valence على نهر الرون ، واستعادوا ليون وبرجنديا .(٣)

استعد شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنيون ، وتعتبر الأخيرة مفتاح وادى الرون ، كذلك اعتزم الاستيلاء على مرسيليا ، فإلى جانب الأهداف السياسية التى حملت شارل مارتل على قتال العرب ،

---

(١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٩٣ ، أرسلان ص ٩١ ـ ٩٣ .

(٣) نفح الطيب جـ١ ص ٢٢٠ (الطبعة الجديدة) ، مؤنس: فجر الأندلس ٢٨٠ـ٢٨١ أرسلان ص ١٠٤ ، Lévi Provençal I.P. 63

فهناك العامل الاقتصادى ، إذ كان تحكم المسلمين فى فرنسا الجنوبية ، يؤدى إلى ضيق اقتصادى شديد لبلاد غرب أوربا (١) .

تقدم شارل مارتل مع ابنه هلدبراند Hildbrand عام ٧٣٧ م ، وحاصر أفنيون حتى اقتحمها بعد أن استبات المسلمون فى الدفاع عنها ، ثم حاصر أربونة ، معقل العرب فى جنوبى فرنسا ، وأميرها يومئذ الهيثم ، Athima ، لكنه عجز عن فتحها ، إذ أسرع عقبة السلولى وأرسل جيشاً عن طريق البحر ، نجدة لأربونة ، فقد كانت المواصلات البحرية هى الوسيلة الأمينة بين مسلمى الأندلس وجنوبى فرنسا ، نظراً لخطورة الطرق البرية عبر البرانس ، غير أنه بوصول هذه النجدة ، باغتتها شارل قبل أن تتهيأ للقتال وقضى عليها ، بحيث لم ينج منها إلا القليل ، الذى فر إلى أربونة أو عاد إلى البحر . صمدت أربونة للحصار حتى اضطر شارل إلى الرحيل عنها لتجدد ثورات الفريزيين والسكسون .

وقبل أن يرحل شارل ، خرب القلاع فى نيم Nimes وآجد Agde وبيزى Bezies وماجلون Magallona ، وتعرف هذه المدينة الأخيرة باسم « ثغر المسلمين » إذ كانت مرسى أميناً للسفن الإسلامية القادمة من أسبانيا وأفريقية ، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التى تصل عن طريقها (٢) .

---

(١) Deanesly .P. 287

(٢) مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، أرشيبالد لويس ص ١١٨ ،
Deane., P. 287; Scott.I. P. 311; Pirenne, op. cit' pp. 156 - 7

وخلال تلك الفترة (٧٣٧ — ٧٣٩) ثار موررن دوق مرسيليا مرتين ضد الفرنجة (٨٣٨ ، ٨٣٩ م) وجدد حلفه مع المسلمين الذين ساعدوه واضطر شارل مارتل أن يطلب المساعدة من ليتبراند Liutprand ملك اللومبادر ، ولما تجددت الثورات المحلية فى جنوبى فرنسا عام ٨٤١ م ، تولى هلد براند ، وأخوه بيبين (الذى عرف بالقصير) قمعها ، وذلك قبيل وفاة شارل بشهور (توفى شارل ٧٤١ م) (١) .

وبينما تلك الأحداث تجرى فى حوض البحر الأبيض الغربى ، كانت الدعوة العباسية تثير القلاقل فى المشرق الإسلامى ، وشغلت بها الخلافة الأموية فى أواخر عهدها ، فلم تتمكن من بذل العناية الواجبة بهذا القسم البعيد من العالم الإسلامى فى الغرب ، حتى كان أمر هذا القسم موكولا لأمراء أفريقية والأندلس وإمكانياتهم ، وإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الخوارج فى أفريقية ، التى سببت الكثير من المتاعب للخلافة الأموية بعد عام ٧٤٠ م ثم ثورة البربر ضد العرب فى أسبانيا وتكرارها عام ٧٤٠ ، ٧٤٢ م وقيام بعض القبائل العربية بالفتن فى أسبانيا عام ٧٤٥ ، ٧٤٦ م ، كل ذلك يفسر ما تتابع من بعض الهزائم فى فرنسا ، مما أثر على الروح المعنوية فى مسلمى الأندلس . ومن ناحية أخرى نبه العالم الغربى إلى ما يكتنفه من خطر المسلمين .

وجاء ختام هذه الحوادث فى قيام الخلافة العباسية عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م وانتقال العاصمة الإسلامية أو مركز العالم الإسلامى من دمشق إلى بغداد

---

(١) Pirenne, P. 157; Deanesly, P. 287; Scott, P. 311

وذلك كله أدى إلى انقسام العالم الإسلامى(١) .

وبالمثل ، حدث تغير فى العالم الغربى ، فقد زالت الدولة الميروفنجية وقامت الدولة الكارولنجية ، إذ حدث بعد وفاة شارل مارتل فى أكتوبر من عام ٧٤١ م ، أن قسم النفوذ والسلطان فى مملكة الفرنجة بين أبناء شارل الثلاثة وهم : كارلومان Carloman وبيبين القصير وابن غير شرعى هو جريفو Grifo . وساعدت الظروف بيبين القصير حتى انفرد بالنفوذ عام ٧٤٧ م ، مع وجود ملك ميروفنجى ضعيف هو شلدريك الثالث Childeric III (٧٤٣ - ٧٥١م) . وفى زمن بيبين القصير - وعرف كذلك باسم بيبين الثالث - انتهى حكم الميروفنجيين وقامت أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية بفضل دهاء بيبين القصير وقوته وتأييد البابوية له .

أرسل بيبين القصير فى عام ٧٥٠ م ، بعثة إلى البابا زكريا Zacharias مؤلفة من برخارد Burchard أسقف فرزبرج Wirzburg وفولراد Fulrad مقدم ديرسانت دينس ، واستفتت البعثة البابا فى « أيهما أجدر بحمل صولجان الملك ؟ شلدريك الذى يتولى ولا يحكم ، أم بيبين الذى دعم ورعى جميع شئون المملكة ؟ »

أجاب البابا : « باسم بطرس الحوارى ، أن بيبين هو الملك (٢) » . وتم

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٤٣ وما بعدها ، الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٣ - ١٢٤ ، الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ وما بعدها ، العبادى ص ٦٠ - ٦١ ، Deanesly, P. 204

(٢) انظر ماسبق (ص ٢٣) .

Lavisse, I, PP. 270-79; Funk Brentano, P. 291; Deanesly, P. 291.

تتويج بيبين ملكا على الفرنجة فى كتدرائية سواسون Soissons على يد المبشر الإنجليزى بونيفاس Boniface ، وذلك فى خريف عام ٧٥١ م (١٣٣ هـ) ، ثم أعاد البابا تتويجه بنفسه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، كما توج معه ولديه : شارل (شارلمان) وكارلومان ، ومنحه لقب « بطريق الرومان »

ومن ثم تدعم مركز بيبين القانونى ، وصار باستطاعته أن يتدخل فى شئون إيطاليا ، وأن يقارن بالحكام الأقوياء فيها وفى القسطنطينية وأسبانيا الإسلامية وحتى بغداد ، بل صار بيبين أقوى ملك فى غربى أوربا ، ويتمتع بتأييد البابوية ورجال الدين . وكانت البابوية فى حاجة إلى مساعدة الفرنجة ضد اللومبارد فى إيطاليا(١) .

الخلاصة : أن الوضع السياسى فى منتصف القرن الثامن الميلادى وخلال النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، قد تبلور فى وجود ثلاث قوى عالمية هى : الإمبراطورية الإسلامية (الأمويون ثم العباسيون) والإمبراطورية البيزنطية ، ثم دولة الفرنجة الكارولنجيين .

• • •

وخلال تلك الأحوال المضطربة فى العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربه ، قام المسيحيون فى مدن سبتمانيا ، بمساعدة الجيش الفرنجى ، تحت قيادة قوطى يسمى أنسمندس Ancemundus وطردوا العرب من سبتمانيا ومدنها

---

(١) فشر ص ٨٢ ، Gibbon; Deanesly. P. 291; Vol. V. P. 537.

عام ٧٥٢ م ، واستعاد الفرنجة أغلب مدنها مثل نيم وآجد وبيزي وما جلوت (١) .

أما أربونة ، وهي آخر حصن قوى للمسلمين ، فقد حاصرها الفرنجة وطال حصارها لمناعتها ، وتمكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين ، وصادف ذلك وقوع مجاعة في جنوبي فرنسا عطلت حركات الجيوش ، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها ، ولاسيما أن بيبين ملك الفرنجة ، شغل في إخماد بعض الثورات التي قامت في بلاده(٢) .

كما أن أسبانيا في ذلك الوقت شغلت بدخول عبد الرحمن الداخل الأموي وتأسيس الدولة الأموية فيها ، وبعد أن استتب الأمر لعبدالرحمن الأموي عام ١٤٠ هـ - ٧٥٨ م (٣) ، التفت إلى مدينة أربونة المحاصرة ، وأرسل لها مددا بقيادة الأمير سليمان الأموي، ويرجح أن اسم هذا الأمير هو : أبو سليمان حبيب بن عبدالملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان(٤)، ولكن عصابات المسيحيين المنتشرة في جبال البرانس قضت على هذا المدد (٥) .

---

(١) Pirenne, Moh. & charl. P. 157 ; Deansely, P. 294

(٢) فجر الأندلس ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، Deanesly, P. 294

(٣) انظر : المقريزي : المقفى ج ٤ ورقة ٥٣ ـ ٥٥ ، أخبار مجموعة ص ٤٦-٥٦ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٦٠ — ٧٠ ، أعمال الأعلام ص ٧ — ٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ابن القوطية ص ٤٥ وما بعدها .

(٤) فجر الأندلس ص ٢٩٠ حـ ١ .

(٥) فجر الأندلس ص ٢٩٠ ،

Lévi-Prov., I. PP., 12-14, 95-103 Scott. I, PP, 391-7 ; Lane-Poole, op. cit., PP. 60-63.

ولما طال حصار أربونة ، تآمر السكان المسيحيون بها ضد المسلمين وعولوا على خيانتهم والإيقاع بهم ، فاتفقوا سرا مع بيبين القصير ، على تسليمه المدينة بشرط أن يتركهم أحراراً فى مدينتهم مستقبلا . وقاموا على الحامية الإسلاميه فى أربونة فأجهزوا عليها ، واقتحموا أبواب المدينة وفتحوها لجيوش الفرنجة فدخلتها عام ٧٥٩ م. وبذلك قضى على الحكومة الإسلامية فى أربونة . بعد أن ظلت بها نحو أربعين سنة (٧٢١ - ٧٥٩)(١)

كان فتح الفرنجة لسبتمانيا قد أفاق دوق أكويتانيا ، إذ أضحى بيبين فى وضع يمكنه من فرض حكمه المباشر على الدوقية ، التى طالما طمع فيها الفرنجة ، وتذرع بيبين لذلك بأن الدوق كان يظاهر جريفو Grifo منافس بيبين ، فضلا عن أن الدوق صادر أملاك الكنائس الفرنجية فى دوقيته (٢) .

ولذا تفرغ بيبين لدوقية أكويتانيا فى الفترة ما بين ٧٦٠ ، ٧٦٣ م ، وأرسل لها الجيوش لغزوها فى كل سنة ، واتخذ من قلعة بورج Bourges قاعدة لغاراته عليها . وأخيراً اندفع الفرنجة فى عام ٧٦٦ ، إلى وادى الجارون وأخضعوا الدوقية ، ودبر بيبين مقتل الدوق فى عام ٧٦٨ م . وهى السنة التى مات فيها بيبين نفسه ، وبهذا الفتح قويت مملكة الفرنجة حتى اعتبرت أن جبال البرانس هى الحد الطبيعى لبلادها (٣)

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٩٠ — ٢٩١ ، أرسلان ص ١١٢ — ١١٣ (عن رينو) ، أرشيبالد ص ١١٩ .

(٢) Deanesly, P.294

(٣) Ibid, P. 295

أما موقف المسلمين ، بعد سقوط سبتمانيا ؛ فكان ضعيفاً إذ دأب الفرنجة على إثارة الفتن بين زعماء المسلمين الطامحين ، وتشجيع الطامعين منهم على الاستقلال بالولاية التي يحكمها ، كما اتصلوا بالمسيحيين في أسبانيا : في قطالونيا وأرغون Aragon (١) ونافار ، وشجعوهم على توحيد كلمتهم ضد المسلمين ، وكانت الأحوال ملائمة بسبب موقف الخلافة العباسية من الأمويين الذين اغتصبوا الحكم في أسبانيا .

* * *

كان المنصور قد فشل في هزيمة عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ ، حين أرسل أسطولا بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي عام ١٤٦هـ / ٧٦٣م ، ونزلت قوات العباسيين بباجه Beja (٢) ، والتقت بجيش عبد الرحمن الداخل قرب أشبيلة ؛ وانتصر عبد الرحمن وقتل العلاء وكثير من جيشه ؛ وبعث عبد الرحمن ببعض رءوس القتلى إلى القيروان ومكة ؛ حيث ألقيت فيهما سراً ؛ وعلق بطاقة بأسماء كبار القتلى في آذان الرءوس التي ألقيت ؛ فلما رآها المنصور في مكة ؛ وكان يحج في تلك السنة ؛ ارتاع وعلق بقوله : «ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر» (٣) .

---

(١) أرغون Aragon هي غير أرجونة Arajona : الأولى إقليم والأخرى مدينة ، بالأندلس (انظر الروض المعطار ص ١٢) .

(٢) تقع هذه المدينة جنوبي البرتغال ، وكانت تسمى زمن الرومان باسم :
Pax Iulia (الروض المعطار ص ٣٦ — ٣٧)

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ ـ ١٢٤ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، أعمال الأعلام ص ٩ ، أخبار مجموعة ص ١١٨ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٧٧ — ٧٩ ، ابن القوطية ص ٥٧ — ٥٨ ، Scott, I. PP. 398-9

كذلك بات كل من العباسيين فى بغداد ، والأمويين فى قرطبة ، يتربصون الدوائر ، كل بصاحبه ، ولم يرأيهما حرجاً فى التحالف مع المسيحيين ضد بعضهما البعض ، ومن ثم قامت علاقات بين بلاطى قرطبة وبيزنطة من ناحية ، وبين بلاطى بغداد والفرنجة من ناحية أخرى. وجاءت بعثة فرنجية من قبل بيبين القصير إلى بغداد عام ١٤٨هـ/٧٦٥م ، حيث مكث أعضاؤها ثلاث سنوات ، عادوا بعدها محملين بالهدايا ، ومعهم رسل الخليفة المنصور . عادت البعثة عن طريق مرسيليا إلى متز Metz باللورين حيث قضى أعضاء السفارة الإسلامية الشتاء ، وبالغ بيبين فى إكرامهم وأنزلهم بقصر سل Sels على ضفاف اللوار ، ثم عادوا عن طريق مرسيليا (١) .

ومات بيبين فجأة فى عام ٧٦٨م على أثر مرض لم يمهله طويلا ، فلم تكن هناك فرصة للصراع بين ولديه : شارلمان Charlemagne وكارلومان Carloman . وحكم الأخوان ، كل فى عاصمته ، الأول فى نويون Noyon والثانى فى سواسون Soissons ، وكانت المدن الهامة فى نصيب شارلمان ، وهو الأكبر ، هى : أكس Aix التى لم تكن كبيرة فى ذلك الوقت ونويون وروان Rouen وتور Tours ومن مدن أخيه الهامة : سواسون وريمز Rheims وتريز Trier وباريس وأورليان (٢).

ثم شاءت الأقدار أن يموت كارلومان عام ٧٧١م ، فضم شارلمان أملاك

---

(١) أرسلان ص ١١٨ — ١١٩ ، ديفيز : شارلمان (ترجمة البار) ص ٢٩٥ ، Pirenne. ; Deanesly, P. 294 ; Moh. & Ch., P 160

(٢) Deanesly, p. 322-3 ; Funk-Brentano p. 302 ; Lavisse I PP. 280-81

أخيه ، وظلت دولة الفرنجة موحدة غير مقسمة نحو ثلاثة وأربعين عاما وهكذا خلا الجو لما سوف يقوم به شارلمان ، وبرهن على أنه جدير بما انفق له من حظ (١).

وكانت علاقة شارلمان بالعباسيين استمراراً للود الذى قام بين أبيه بيبين وبين الخلافة العباسية من قبل ، عاصر شرلمان ستة من خلفاء بنى العباس هم : المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م) والمهدى (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م) والهادى (١٦٩ - ١٧٠ هـ/ ٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ/ ٧٨٦-٨٠٩ م) والأمين (١٩٣-١٩٨ هـ/ ٨٠٩-٨١٣م) ، وأخيراً أوائل عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ/ ٨١٣-٨٣٣ م) .

وفى زمن شارلمان قل خطر المسلمين على فرنسا منذ طردهم من سبتمانيا ومنذ إخضاع الفرنجة لدوقية أكويتانيا ، وهذا فضلا عن عنصر الضعف العام فى الجبهة الإسلامية الكبرى ، وهو الانقسام القائم بين شطرى العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب .

ومع هذا ظل الطريق أمام الزحف الإسلامى مفتوحاً بين فرنسا وأسبانيا . وذلك من حصن سرقسطة الواقعة على نهر إبره Ebro . وكذلك من المعاقل الإسلامية فى برشلونة ووشقة Huesca ومع أن مملكة أشتوريا المسيحية الصغيرة موالية للفرنجة ، إلا أنها ضعيفة بحيث تعجز عن إشغال القوات الإسلامية .

---

(١) فشر (ترجمة زيادة والباز) ص ٨٣ .

H. G. T. I. P. 340 ; Lavisse T. PP. 280-81 Mott & Dee pp. 33-8 ;

رغب شارلمان فى التدخل فى أسبانيا بدافع الحماس الدينى حماية المسيحيين بها ، وبدافع الحلم الإمبراطورى الذى يداعبه فى تكوين إمبراطورية واسعة تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعاً (١).

تذرع ملك الفرنجة بحق العباسيين فى أسبانيا وتشجع بالعلاقات الودية التى ربطت أسرته بالخلافة العباسية (٢) ؛ وجاءته الفرصة حين هرب بعض الموتوريين من «صقر قريش(٣)»؛ والذين كما يصفهم المرحوم الأستاذ الثبت العبادى « صغرت نفوسهم ؛ فأصبحوا لا يهمهم إلا تحقيق مصـــلحتهم الشخصية» (٤) ، اتصل هؤلاء بالمنصور على أن يكونوا هم واسطة الاتصال بينه وبين شارلمان ، لتدبير غزو الأندلس (٥) .

---

(١) Lévi-prov. op. Cit. pp. 118-120 ; Scott. I P. 405

(٢) De Marles. PP. 233-5 ; Lavisse I; pp. 303-4 Deanesly. pp. 350-1

(٣) كان المنصور هو الذى نعته بهذا اللقب ، فقد ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه : أخبرونى من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذلك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال : ماقلتم شيئا . قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا ؛ قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ماقلتم شيئا . قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجمياً ، منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشـدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه ، وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين ، بطاب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد بأمره ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين . » . (أعمال الأعلام ص٩ — ١٠ ؛ ابن عذارى حـ ٤ ص ٨٨ — ٨٩ ؛ (انظر كذلك : Dozy I. PP. 38 382)

(٤) تاريخ الأندلس ص ١ ٧

(٥) Scott I; p. 403

هرب أولئك المتآمرون بزعامة سليمان بن يقطان بن العربي أمير برشلونة فى عام ١٦١هـ/٧٧٧م ومعه أبو ثور صاحب وشقة(١) وتوجهوا إلى مدينة بادربورن Baderborn فى سكسونيا حيث كان شارلمان يحتفل بانتصاره على السكسون (٢) ، ورحب بهم شارلمان ، واتفقوا معه على أن يسلموا له بعض المدن فى شمالى أسبانيا ، يقول ابن الأثير : «واستدعى سليمان قارله ملك الأفرنج ووعده بتسليم البلد» (٣). وتوجد صورة لاجتماع بادربورن نقلها صاحب الحلل السندسية (٤) .

ولكى يجعل المتآمرون لعملهم صفة شرعية ، اتفقوا مع شارلمان على أن يدخل الأندلس بوصفه حليفاً لبنى العباس(٥) ، والمعروف عن ابن العربى هذا أنه حالف من قبل بيبين القصير أبا شرلمان، وبتشجيعه ووعوده ثار ضد عبد الرحمن الداخل لكى يستقل ببرشلونة ، واستولى على سرقسطة (٦) .

---

(١) دانفيز شارلمان ص ٢٩٦

(٢) Scott I p. 304 ; Dozy I ;p. 377

(٣) تاريخ الكامل حـ ٦ ص ٢٢ — ٢٣

(٤) حـ ٢ ص ١٣٣

(٥) انظر مايلى

(٦) أخبار مجموعة ص ١١٠ — ١١٢ ؛ ابن القوطية ص ٥٥ — ٥٦ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٨٤ ، ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٢ — ٢٣ ؛ العبادى ص ٨١ ، أرسلان : غزوات العرب ص ١١٦ — ١١٧ ، ١٢٠ — ١٢١ ، الحلل السندسية جـ ٢ ص ١٣١ — ١٣٢

Lévi-Prov., I, PP, 121-2

ويضاف إلى حزب المتآمرين كذلك أبو الأسود بن يوسف الفهرى، فقد خرج على عبد الرحمن وفشل فى ثورته ، إذ تمكن صقر قريش من القبض عليه وسجنه ، لكن أبا الأسود فر من سجنه بعد أن ادعى العمى ، وكان عبد الرحمن الداخل قد قضى على أبيه يوسف الفهرى والى الأندلس من قبل (١) .

وأيا كانت البواعث التى حملت المتآمرين على الاتصال بشارلمان ، فإن الدعوة جاءته فى الوقت المناسب ، إذ انتهى من إخضاع السكسون فى شمالى ألمانيا ؛ ولم يبق أمامه إلا أن يتوجه لتحقيق أحلامه الإمبراطورية (٢)

كانت الخطة التى دبرها شارلمان مع المتآمرين هى : أن يعبر عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى (٣) إلى أفريقية ؛ حيث يعد جيشاً ؛ ويعود به لينزل فى مقاطعة تدمير ؛ ويقوم سليمان بن يقطان أمير برشلونة بتمهيد الطريق أمام جيوش الفرنجة إلى سرقسطة .

حشد شارلمان جيشاً جراراً فى ربيع ٧٧٨م ؛ جمعه من البافاريين واللومبارديين والاستراسيين والبرجنديين وأهل سبتمانيا ؛ وسارت المؤامرة فى طريق تنفيذها ؛ غير أن تحديد الوقت فى ذلك الزمان ؛ لم يكن من الدقة بحيث توجه الضربة فى وقتها المقدور ؛ ويرجع ذلك إلى صعوبة المواصلات

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ — ٥٥ ، ٧٢ — ٧٥

(٢) Dozy, I. P. 376 ; Deanesly, P. 351

(٣) سمى بالصقلبى لأنه كما وصفه ابن عذارى وابن الأثير : كان طويلا أشقر أزرق أمعر — أى قليل الشعر — (البيان ج ٢ ص ٨٣ ، تاريخ الكامل ج ٦ ص ٢١)

وبطء الاتصال . عاد ابن حبيب إلى الأندلس بالجيش الذى جمعه من أفريقية ونزل فى تدمير ؛ فنهض إليه عبد الرحمن الداخل وقضى عليه ؛ ولم يستطع ابن العربى أن ينجده ؛ معتذراً بأنه لا يستطيع أن يبرح مكانه حتى تصل جيوش شارلمان ؛ وبعد أن فرغ عبد الرحمن الداخل من القضاء على جيش ابن حبيب ؛ توجه فى الحال إلى سليمان وقضى عليه كذلك (١) .

قسم شارلمان جيشه إلى قسمين جنوبى وشمالى ؛ فأما الجنوبى فقد دخل أسبانيا عن طريق سبتمانيا وتوجه رأساً إلى برشلونة ؛ وأما القسم الشمالى ؛ ويقوده شارلمان بنفسه ؛ فقد دخل عن طريق ممرات جبال البرانس الوعرة (٢) ؛ ويحتمل أنه دخل عن طريق ممر رونسفال Roncevalles ولما لم تجد جيوش شارلمان العون المفروض ؛ تقدم الفرنجة إلى مملكة نافار المسيحية وعاصمتها بنبلونه Panpeluna (٣) ؛ غير أن هذه المملكة المسيحية وغيرها من القبائل المسيحية المنتشرة فى تلك المناطق النائية من شمالى أسبانيا لم تقدم المساعدة المنتظرة لشارلمان ؛ ونفرت من أن يتحكم فيها الفرنجة (٤) ولذلك اضطر شارلمان إلى حصار العاصمة بنبلونه ؛ ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد (٥) . ولما توجه إلى سرقسطة التقى بالقسم الجنوبى من جيشه ؛

---

(١) العبادى ص ٢٨٢ Lane-poole. Op. Cit. p.83; Berthelot Op. Cit. PP. 310-311

(٢) Lévi Prov. I; pp. 123 .. 24

(٣) تبعد مدينة بنبلونه عن سرقسطة بنحو ١٢٥ ميلا ، وأهلها كما يصفهم الحميرى « جاعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالبشقية لايفهمون » (الروض المعطار ص ٥٥ ـ ٥٦)

(٤) غزوات العرب ص ١٢١ ؛ الحلل السندسية حـ ٢ ص ١٣١ ـ ١٣٢

(٥) المراجع السابقة

وفوجئ شارلمان بأن المتحكم فى سرقسطة لم يكن من أعوانه ؛ بل إن صاحب الأمر فيها يومئذ هو الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ورغم أنه من الخوارج على عبد الرحمن الداخل ؛ إلا أنه اعتصم داخل المدينة ودافع عنها دفاع الأبطال ؛ ولم يكن هدف المتآمرين أنفسهم فى الواقع إلا أن يساعدهم شارلمان على الاستقلال بالولايات التى يطمعون فيها (١) فضلا عن أن خيانة سليمان لم تؤد إلى شىء ؛ إذ كان يصارع منافساً له على زعامة الحزب المناصر للعباسيين (٢) .

يقول دوزى Dozy : عند ما وصل شارلمان بجيشه ؛ لم يستطع ابن العربى أن يتغلب على نفور المسلمين من قبول دخول ملك فرنسا مدينتهم ؛ وكافح الحسين بن يحيى الأنصارى كفاح المستميت ؛ ولما شعر ابن العربى أنه لم يستطع أن يوفى بوعده لملك الفرنجة توجه إليه وارتمى فى أحضانه ؛ حتى لا يظن أنه خدعه (٣) .

وهكذا امتنعت سرقسطة على شرلمان ؛ فضرب عليها الحصار ؛ وخف عبد الرحمن الداخل لنجدتها ؛ ولما يئس شارلمان من وعود العباسيين ترك سرقسطة وسار نحو الجنوب واستولى على وشقه Huesca ؛ وصاحبها أبو ثور ثم استولى على برشلونة وجيرونا Gerona (٤) .

---

(١) المراجع السابقة

(٢) Scott P. 407

(٣) Lévi Prov. Les Musulmans de l'Espagne I. P. 379

(٤) العبادى ص ٨٢ ؛ De Marlés p. 175 ; Scott. I. pp. 406 - 7 ; الروض المعطار ص ١٩٤ — ١٩٥ Deanesly , p. 352 Lévi Prov. op. Cit. PP. 11 - 129 .

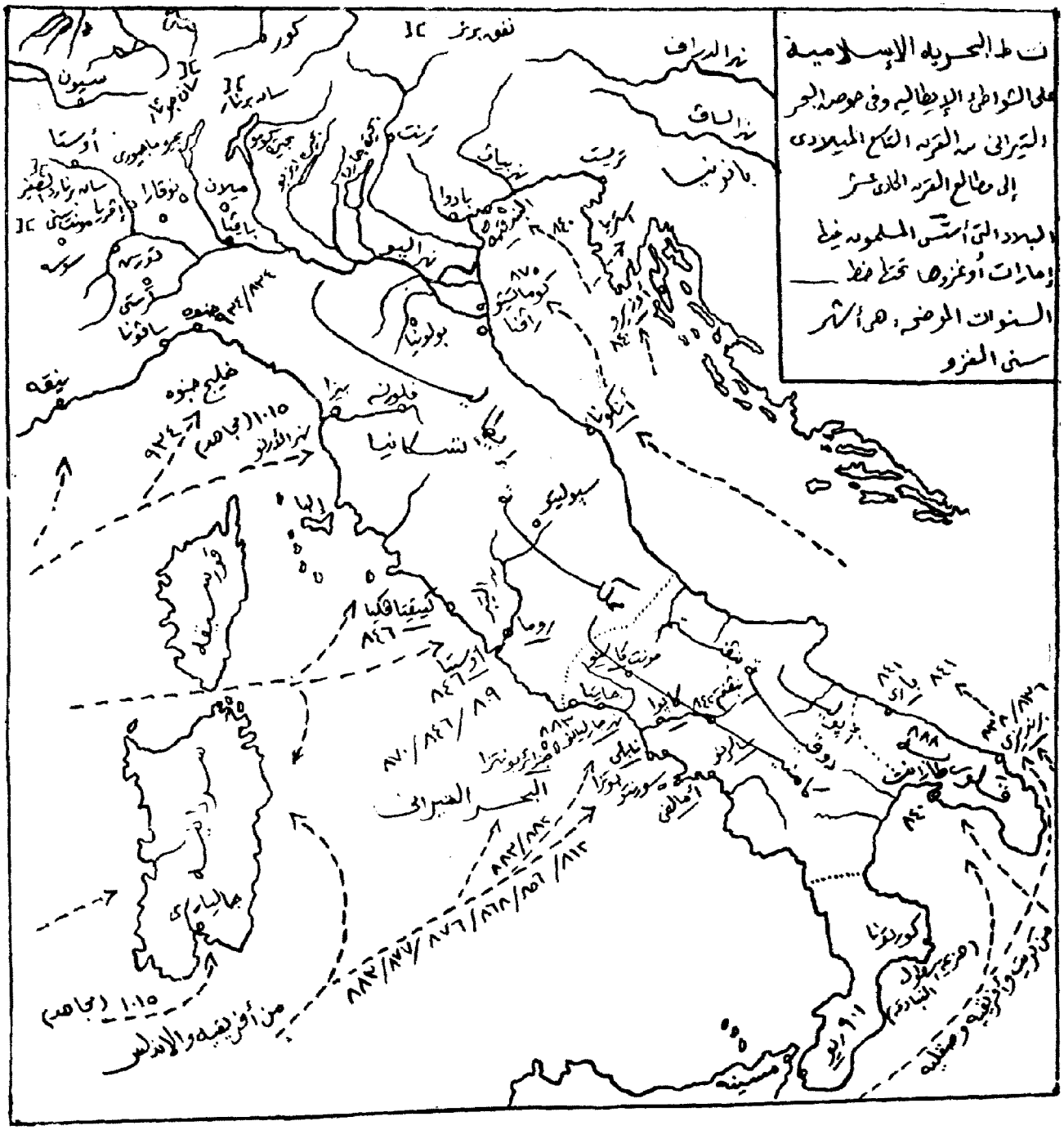
خطط الحروب الإسلامية
على الشواطئ الإيطالية وفي عرض البحر
التيراني من القرن التاسع الميلادي
إلى مطالع القرن الحادي عشر
البلاد التي أسس المسلمون فيها
إمارات أو غزوها تحتها خط ـــــ
السنوات المرضعة هي أشهر
سني الغزو
كورفو
نهر الدراف
نهر الساف
بافونيا
نهر البو
بولونيا
البندقية
خليج البندقية
نهر الأدريج
بيزا
فلورنسا
بيكولا نشكانيا
سبوليتو
روما
كيفيتافكيا
أوستيا
البحر التيراني
جالباي
من أفريقية والأندلس
مسينة
كورفوتا
طارنت
بارى
أمالفي
سالرنو
نابلي
مونت كاسينو
أكوينو
كابوا
بنفنتو
سالرنو
سورنتو
أمالفي
نابلي
مارسيليا
نهر الرون
نهر الإبرو
نهر الوادي الكبير
قرطبة
مرسية
بلنسية
طرطوشة
سرقسطة
برشلونة
نهر السين
نهر اللوار
نهر الراين
نهر الدانوب
نهر الإلب
نهر الأودر
نهر الفستولا
نهر الدنيبر
نهر الدون
نهر الفولجا
بحر قزوين
بحر الخزر
بحر آرال
بحر البلطيق
بحر الشمال
بحر المانش
بحر إيرلندة
بحر الظلمات
بحر الأطلنتيك
بحر الأدرياتيك
بحر إيجه
بحر مرمرة
بحر الأسود
بحر أزوف
بحر الجزائر
بحر تونس
بحر طرابلس
بحر برقة
بحر الإسكندرية
بحر دمياط
بحر تنيس
بحر رشيد
بحر الفرما
بحر السويس
بحر العقبة
بحر الحجاز
بحر اليمن
بحر عمان
بحر فارس
بحر الهند
بحر العرب
بحر الحبشة
بحر النوبة
بحر مصر
بحر الشام
بحر الجزيرة
بحر العراق
بحر الخليج
بحر عمان
بحر فارس
بحر الهند
بحر العرب
بحر الحبشة
بحر النوبة
بحر مصر
بحر الشام
بحر الجزيرة
بحر العراق
بحر الخليج

فى ذلك الوقت علم شارلمان بتجدد ثورات السكسون؛ فقد انتهز هؤلاء فرصة انشغاله فى المشروع الأسبانى؛ وثاروا بقيادة زعيمهم الوطنى فيتكيند wittekind واستولوا على مدينة دتز Deutz المقابلة لمدينة كولونيا على نهر الراين (١) . ومن أجل هذه التطورات ؛ اضطر شارلمان إلى الانسحاب من أسبانيا ؛ بعد أن فشل مشروعه ؛ وفى طريق عودته دمر أسوار بنبلونة لأنه عجز عن الاحتفاظ بها كنقطة ارتكاز له فيما وراء البرانس (٢) .

أثار عمله هذا قبائل البشكنش Basques فى نافار ؛ ولما كانت هذه القبائل المسيحية عاجزة عن مناجزة ملك الفرنجة فى حرب صريحة مكشوفة ولاسيما وأن شارلمان يمتلك فرقة فرسان قوية ؛ رغم أن الخيل البشمية ـ كما يصفها الحميرى ـ «أصلب الدواب حافزاً لخشونة بلادهم»(٣) . لذلك ترقب البشكنش مروره داخل ممرات البرانس الضيقة ؛ عند ما عاد يجر أذيال الخيبة من الطريق الشمالى إلى أقطانيا (أكويتانيا) ؛ ولم تكن هذه القبائل المتفرقة فى تلك المناطق الوعرة ، تطمع فى شىء أكثر من المغانم والمؤن التى يحملها جيش شارلمان العابر ؛ ولم تكن مدفوعة بروح وطنية أو نحوها (٤) .

وقف البشكنش فى صياصى الجبال ، فى كمين قرب ممر رونسفال أو

---

(١) Dozy . I P. 379

(٢) Scott. I .P. 406 ; Deanesly. P. 351

(٣) الروض المعطار ٥٥ ـ ٥٦

(٤) العبادى ص ٨١ — ٨٢ ؛ Dozy. I. P. 380

وادى رونسفال Valley of Roncevalles ؛ وكان صقر قريش قد أمدهم بالسلاح وبعض الرجال ، وقدر بعض مؤرخى اللاتين أن عدد المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الوقعة يبلغ نحو ٣٠ ألف مقاتل (١) . انتظرت هذه القوات المتحالفة ، حتى مرت مقدمة جيش شارلمان ، وكان هذا الممر ضيقا مظلماً لتكاثف الغابات فيه وسط الجبال ؛ ويقود المؤخرة ثلاثة من أبرز قادة شارلمان هم :

السنجال إجنهارد Egginhard (٢) وأنسلم Anselm كونت مقاطعة بلاتين Platine ورولاند Roland حاكم مقاطعة بريتانى Brittany (٣) .

---

(١) يرجح أن عدد المسلمين كان كبيرا ، إذ يحتمل أن المسلمين الذين اشتركوا مع البشكنش فى مهاجمة جيش الفرنجة ، لم يقتصروا على العدد الرسمى الذى قدمه صقر قريش ، فهناك المتطوعون المجاهدون ، ثم إن « أغنية رولا » رغم صفتها الأدبية ، أشارت كثيرا إلى المسلمين المقاتلين (انظر ما يلى)

(٢) السنجال ترجمة للكلمة الفرنسية Sénéschal وأصلها اللاتينى : Seresceallus ، ومعناها النائب أو الوكائل أو الكفيل ، على حد المصطلح العربى فى تلك العصور (انظر المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٩٨٥ حاشية ٥)

(٣) مقاطعة بريتانى أو ماوك بريتانى March of Brittany فى شمالى غربى فرنسا ، أنشأه الفرنجة بمقتضى تنظيماتهم عام ٧٧٨ م ، وعين عليه كونت رولاند حاكما ؛ ويشبه هذا التنظيم ما وقع فى الدولة البيزنطية حين أنشأت الثيمات Themes وهى مناطق عسكرية إدارية على الحدود . ويضم بند بريتانى كونتيتى : نانت Nantes ، رن Rennes . وسكان هذه المنطقة من السلت Celts القدماء ، ويعرفون كذلك باسم البريطانيين نسبة إلى شبه جزيرة بريتانى التى يقيمون فيها ، وقد ظلوا على عدائهم وكراهيتهم للفرنجة الجرمان ، ولم يخضعوا لسلطانهم طواعية واختياراً ، ولذا كثرت ثوراتهم وجردت عليهم أكثر من حملة لإجبارهم على الخضوع ودفع الجزية ، من ذلك حملة بقيادة السنجال آدولف Adulf فى عام ٧٨٦م ، وحملة أخرى عام ٧٩٩ م ، ولم تثبت سيادة الفرنجة على هذه المنطقة فى وقت ما (انظر Deanesly PP 352 — 5—Brooke, PP. 65 100; Pirenne, A Hist. of Europe, P. 81; Dè Marlés, PP. 234 — 38; Lane - Poole, P. 36.)

انقض المسلمون والبشكنس على المؤخرة وأبادوها عن آخرها، بعد أن أبدت شجاعة فائقة واستماتة فى القتال، وتقدر هذه المؤخرة بنصف جيش شارلمان؛ حاقت هذه الكارثة بجيش شارلمان فى يوم ١٥ أغسطس من سنة ٧٧٨ م (١). ولم يعلم شارلمان بها إلا مؤخرا، إذ كانت المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته نحو ثمانية أميال، ومن بين القتلى الفارس رولاند، المحبب إلى سيده، فلما علم بمصرعه، حزن عليه أشد الحزن (٢).

لم تذكر الحوليات الملكية Royal Annals شيئا عن هذه الفاجعة، وتغاضت عن تسجيلها أو تسجيل ما وقع فيها، غير أن جميع المعاصرين، كانوا يعرفون أسماء القتلى، كما يقول أحد مؤرخى القرن التاسع الميلادى، وكل ما ورد فى الحوليات الملكية عن حوادث عام ٧٧٨ م عبارة مقتضبة هى:

« فى هذه السنة، توجه السيد شارل إلى أسبانيا، حيث لقى مأساة كبرى » (٣).

وأهمية هذه الوقعة من الناحيتين الحربية والسياسية، بعيدة المدى، فقد كانت مأساة حربية من غير شك؛ ومن الناحية السياسية، بددت حلم

---

(١) Dozy, I, P. 380 ; Scott, I, P. 407

(٢) البادى ص ٨٣ ; Lévi - Provencal PP. 124 - 25

(٣) Deanesly, P. 352

شرلمان فى إزالة السيادة الإسلامية عن أسبانيا وتكوين إمبراطورية على النسق الرومانى ، تعيد ذكرى تلك الإمبراطورية العتيدة .

أما الأهمية الأدبية فقد طغت على ما عداها ، إذ ارتبطت هذه الوقعة بشخصية أقدر أبطال شارلمان ، وهو كونت رولاند ، الذى دافع ببطولة حتى مات وهو يردد اسم سيده شارلمان بعبارات أخاذة .

فقد كتبت ملحمة أو أغنية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، عرفت باسم « أغنية رولاند » The Song of Roland ؛ وهى من نوع الملاحم أو أغانى البطولة Chansens de Geste التى تدور حول الأعمال الكبيرة التى ارتبطت بشخصيات بارزة ، لتصبح أناشيد وأزاهير يتغنى بها الناس على مر الأجيال . كتب هذه الملحمة الشاعر النورمانى تيرولد Turold ، ويعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية فى الأدب الفرنسى ، ولها أكثر من ترجمة باللغات المختلفة ، منها ترجمة سكوت ما نكريف Scott - Manerieff التى ظهرت فى لندن عام ١٩٢٠ م .

وتصف الملحمة المجتمع الفرنسى والتفكير الفرنسى فى العصر الإقطاعى وهو القرن الحادى عشر ، رغم أن أصول حوادثها ترجع إلى نهاية القرن الثامن الميلادى ، من ذلك قول الشاعر على لسان تيربن Turpen رئيس الأساقفة الذى اشترك فى الوقعة :

« فى حوليات الفرنجة ، سجل :

« ما أورع الولاء لمليكنا ! (١)

---

(١) « What Vassalage he had, Our Emperer »

ومما جاء على لسان تيربن كذلك ، مشيراً إلى المسلمين الذين اشتركوا فى الموقعة ؛ ومخاطباً مواطنيه يشد من عزائمهم :

« المعركة الوشيكة الوقوع ، أنتم لها .

« إنكم ترون المسلمين بأعينكم .

« صلوا وتضرعوا لنيل المغفرة .

« من أجل طهارة أرواحكم سوف أتضرع . . . ألخ . . . .

وأشارت الملحمة إلى رولاند :

« إن كونت رولاند يتبختر فى الميدان .

« ممسكاً بدندال (١) .

« لقد أوقع بالمسلمين أفدح الخسائر .

« تراهم واحدا فوق واحد ، صرعى كالأكوام . ألخ . . .

وأخيراً تصور الأغنية كيف انتهت حياة رولاند ، وقد اضطجع إلى جـــذع شجرة الصنوبر ورفع يديه إلى السماء ، فأرسل الله إليه الملائكة والقديس ، فحملت روحه إلى الجنة ، ويقابل شارلمان بعد ذلك أود Aude أرملة رولاند ويعزيها ، ويعدها بتزويجها من ابن لويس ، فتأبى الحياة دون رولاند ، وتسقط ميتة على أقدام شارلمان ، وهنا يستبد الحزن بشارلمان ،

---

(١) دندال Dunedal هو اسم سيف رولاند

فتمتلئ عيناه بالدموع ويعبث بلحيته الناصعة البياض ، فتتساقط شعرات منها .

أما حقيقة الوقائع التاريخية ، وما دار فيها من قتال فلم تشر الأغنية بدقة إلى ذلك ، بل طغت عليها الصفة الأسطورية وتمجيد شارلمان دون سند من الواقع التاريخى ، بل فيها كثير من الخطأ التاريخى ، منذ ذلك ، إن شارلمان مكث فى أسبانيا سبع سنوات لإخضاعها ، ودانت له جميع شبه الجزيرة ماعدا سرقسطة ، وهكذا (١) . والخليفة العباسى المعاصر لهذه الوقعة هو المهدى .

* * *

ترك شارلمان فكرة محاربة المسلمين دون تقرير حاسم أو نتيجة ، والتفت إلى أطراف مملكته الشرقية ، حيث طالت حروبه وتكررت مع السكسون (٢) ، كما التفت إلى تقوية سلطانه على أقطانيا (أكوتيانيا) لحمايتها

---

(١) عن حملة شارلمان إلى أسبانيا ، وأغنية رولاند انظر :

Stephenson, C. Mediaeval History, PP. 273 - 278 ; Evans J. , Life in Mediaeval France, PP. 38, 50 ; Basset, R. , Les Documents Arabes sur l'Erpédition de Charlemagne en Espagne (La Revue Historique, T. Lxxxiv, 1904, PP. 286 - 295) ; Barrau - Dihigo , Deux traditions Musulmanes Sur l'Expédition de Charlemagne en Espagne (Paris, 1925) , PP. 168 - 179 ; Calmette, J. , Charlemagne, Sa vie et Son auvre (Paris, 1945) . ; Halphen, L. Charlemagne et L'Empire Carolingien (Paris, 1947, PP. 87 - 88 .

وانظر : شارلمان (ترجمة الياز) ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٢) Lavisse, I, PP. 235 - 90 ; Berthelot, P. 315; Funk - Brentano PP. 313- 16

من تجدد غارات المسلمين عليها ، وقد أصبحت هذه الغارات محتملة بعد فشله الذريع فى حملة على أسبانيا ، فعين ابنه لويس ملكاً على أكويتانيا ، وعمره يومئذ سنة واحدة ، وهو من مواليد أكويتانيا ، أنجبته أمه خلال اشتباك أبيه مع المسلمين فى أسبانيا ، ونظراً لصغر سنه ، عين له أبوه وصيين هما : أرنولد Arnold وميجناريوس Meginaruis (١) .

أما المسلمون فى ذلك الوقت ، فقد قويت روحهم المعنوية ، ولذا قاموا بغارة سريعة خاطفة على أكويتانيا فى عام ٧٨٥م ، (٢) وسار عبد الرحمن الداخل نحو سرقسطة ، وقبل وصوله إليها كان ابن العربى قد قتل على يد الحسين بن يحى الأنصارى الذى اعتقد أن ابن العربى متهم فى دينه وولائه ؛ بعد أن رافق شارلمان فى تقهقر ، ثم عاد ، وأعلن الحسين خضوعه وطاعته وولاءه لصقر قريش ، ولما خرج عليه بعد ذلك انتهى أمره بالقتل (٣) .

ومع انتصار عبد الرحمن الداخل ورجحان كفته ، رأى أن من حسن السياسة ، أن يقيم علاقات ودية مع شارلمان ، بعد أن عجم عوده وعرف قوته وإمكانياته ، فدعاه إلى عقد معاهدة عدم اعتداء ، حتى يأمن كل منهما جانب الآخر ، وزاد عبد الرحمن فى تودده ، فطلب المصاهرة مع شارلمان تدعيما للرابطة بينهما ، فلم يسع شارلمان ، وكان حصيفا ، إلا أن

---

(١) Deanesly, pp. 352 - 3 ; Dozy I, pp. 380 .. 381

(٢) المراجع السابقة .

(٣) ابن عذارى جـ٢ ص ٨ ، Dozy, pp. 380 - 1

يستجيب إلى السلم مع صقر قريش . وأن يبعد عن نفسه ذلك الحلم الإمبراطورى فى فتح أسبانيا ، وتمت المعاهدة والمسالمة ، ولكن المصاهرة لم تتم (١) . يقول المقرى مشيرا إلى هذه العلاقة الودية الجديدة :

« وخاطب عبد الرحمن قارله ، وكان من طغاة الأفرنج ، بعد أن تمرس به ، فأصابه صلب المكسر تام الرجولية ، فمال معه إلى المداورة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة » (٢) .

توفى عبد الرحمن الداخل فى ربيع الآخر ١٧٢ هـ / أكتوبر ٧٨٨ م (٣)، وخلفه ابنه هشام (١٧٢ — ١٨٠ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٦ م) . وكان هشام بمارده Mérida ، يقوم بأمرها ، قبل أن يخلف أباه ، وقد اختار له أبوه هذا العمل ، لكى يتمرس فى ميادين الحرب والجهاد ، وأن يكون أبداً مستعداً لمواجهة المخاطر ، ونجح هشام خلال ولايته لهذه المنطقة الشمالية فى تقليم أظفار الإمارات المسيحية : جليقية وليون ونافار ، إذ كان كثير الغزو لها (٤) .

---

(١) العبادى ص ٨٣ ، pirenne, Moh. & Charl., p. 160

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٥

(٣) عن مقدرة عبد الرحمن الداخل وصفاته وعلمه وشعره وعدله وحروبه وانتصاراته ، انظر : أعمال الأعلام ص ١٠ — ١١ ؛ ابن عذارى حـ ٢ ص ٨٦ — ٩٠ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٤٠ ، Lane — poole. ; Dozy I, pp. 297 sqq p. 66.

(٤) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٧ ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ — ١٢٤ ، الروض المعطار ص ١٧٥ — ١٧٧ ، العبادى ص ١٨٧

وتصفه المراجع ، بأنه شاب كفء متحمس للدين (١) ، « وبمنزلة عمر ابن عبد العزيز فى قومه بالأندلس » (٢) أراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية عن طريق الجهاد ، وهذا فى نظره أجمع شيء للكلمة ، وهدفه كذلك استرجاع ماضاع من البلاد على يد شارلمان وأبيه من قبل ، ولاسيما وأن الفرنجة احتلوا فى الفترة مابين ٧٨٥ ، ٧٩٠ م كثيراً من الأراضى الأسبانية الشمالية حتى وصلوا إلى نحو ٣٠٠ميل فى الأراضى الأسبانية (٣) وشجعه على الجهاد ، وصرف الأمة إليه ، أن القالة فى عهده كثرت ، بأن المسلمين لايقدرون إلا على قتال بعضهم بعضا ؛ بل أفتى الفقهاء بأنه لايجب دفع الخراج لأمراء لايعرفون إلا أن يقاتلوا أمة محمد (ص) وحدها ، وضربوا الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين لم يفتروا عن غزو القسطنطينة وقرع بلاد الروم (٤) .

أعلن هشام الجهاد وأمر الناس كافة أن ينفروا إلى الجهاد ، وأن تكون وجهتهم جبال البرانس ، ومن لم يقدر على الجهاد بنفسه ، وجب عليه الجهاد بماله ، وقرئ منشور الأمير على منابر الجوامع ، فنفر الناس من كل فج ، وتجمع تحت إمرته نحو مائة ألف مقاتل .

---

(١) Deanesly, P. 353

(٢) ومن دلائل حزمه ودينه وعقله وعدله ، أنه لما بنى القنطرة العظمى بقرطبة ، وأنفق فيها أموالا طائلة ، علق الناس : إنما بناها لتصيده ونزهته . فلما بلغه ذلك ، أقسم ألا يجوز عليها إلا لغزو فى سبيل الله أو مصلحة .

(أعمال الأعلام ص ١٢ ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩٨ — ٩٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨)

(٣) Deanesly, P. 353 ، انظر ما يلى

(٤) العبادى ص ٨٧ — ٨٨

قسم القوة إلى قسمين : قسم بقيادته شخصياً توجه به إلى جليقية لمحاربة ثوارها فهزمهم وشتت شملهم (١) ، أما القسم الآخر من الجيش ، فوجههه بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى فظالونيا ، ومنها استعد لاجتياح فرنسا ، وكان شرلمان فى ذلك الوقت مشغولا على ضفاف الدانوب فى حربه ضد الأفار ، كما أن معظم جيش أكويتانيا ، كان مشغولا مع ابنه لويس فى إيطاليا .

دخل عبد الملك فرنسا عام ١٧٧ هـ / ٧٩٢ م ووصل إلى أربونة ، فأحرق ضواحيها وغنم منها ، وسار إلى قرقشونة ، فانبرى إليه وليام دوق طولوشة (تولوز) وكان وليام ينوب عن لويس ملك أكويتانيا فى رعاية مملكته ، استنفر وليام المسحيين ، فاستجاب له أمراء البلاد وأقبلوا عليه من كل جانب ، والتقوا بالمسلمين فى منطقة فيلديني Villedaigne فيما بين قرقشونة وأربونة ، وذلك على ضفاف نهر أنبيو Onbieu ،وكانت المعركة حامية ، انتصر فيها المسلمون وأصيب الفرنجة بخسائر فادحة ، وأبدى وليام دوق تولوز شجاعة رفعته إلى مصاف الأبطال ، وجعلته فى مرتبة رولاند ، حتى صار موضوعا لأساطير العصور الوسطى (٢) . ويقال إن عبد الملك أو غل فى أرض الفرنجة ، حتى وطىء أرض بريطانية (Brittany) وهزمهم (٣) .

---

(١) ابن الأثير حـ ٦ ص ٤٤ ، العبادى ص ٨٨

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٨ ، ابن القوطية ص ٦٥ ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٤٨ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ٩٥ ، أعمال الأعلام ص ١١ — ١٢ ، Scott, I. P. 429

(٣) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٨

اكتفى المسلمون بما أصابوا من مغانم ، ومن هذه المغانم ما أوقف على مسجد قرطبة العظيم (١) . وانتقم الفرنجة وغزوا البرانس فى غارة سريعة عام ٧٩٦ م وغنموا وعادوا (٢) .

* * *

وبعد وفاة هشام عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، تولى ابنه الحكم (١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م) ، ووقعت انقسامات فى أول عهده ، بين مسلمى الأندلس ونازعه عماه عبد الله وسليمان ، فضلا عن حكام المدن الشمالية وأرسل بعض زعماء المسلمين الناقمين على الحكم إلى شارلمان ، وكذلك إلى ابنه لويس ، يطلبون مساعدتهم ، ووقعت مفاوضات بين حزب الناقمين وبين الفرنجة فى إكس لاشابل Aix - La - Chapelle وفى هرستال Heristal ، وذلك عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م (٣) .

وكذلك ثار بهلول بن مروان المعروف بأبى الحجاج فى وشقة Huesca واستولى على سرقسطة ، وبعث رسولا من قبله إلى طولوشة عاصمة أكويتانيا

---

(١) يقال إن خمس الغنائم ، وهو حق الأمير ، بلغ نحو ٤٥ ألف مثقال ذهب أكمل به هشام مسجد قرطبة ، وكان أبوه بدأه من قبل ولم يتمه ، علما بأن صقر قريش بنى هذا الجامع من غنائم الحروب والجهاد ، ولذا زادت حرمة جامع قرطبة فى نظر المسلمين ، وتذكر المراجع أن عبد الرحمن الداخل وضع أساس الجامع على تراب جلبه من جليقية ومن جنوبى فرنسا أى من مسافة نحو ٢٠٠ مرحلة ، وقد حمل الأسرى المسيحيون هذا التراب على ظهورهم ، نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٨ ، ٢١٢ وما يليها ، ابن الأثير حـ ٦ ص ٦ ٤٨ ابن القوطية ص ٦٥ ، غزوات العرب ص ١٢٧ — ١٢٨ (الروض المعطار ص ١٥٣ — ١٥٦ ، Deanesly .P.353

(٢) Deanesly p. 353

(٣) Ibid

يطلب التحالف مع لويس بن شارلمان ضد خصومه من المسلمين فى أسبانيا فقدم عليه عبد الله عم الحكم ، وكان متوجها إلى الفرنجة (١) . وبعد ذلك بسنتين أى فى عام ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م ، أعلن حكم وشقة وضع المدينة تحت سيادة شارلمان ، غير أن الوعود الأخرى الغامضة التى بذلها الناقمون على السيادة الأموية فى الأندلس ، من ناحية الولاء والعون لملك الفرنجة ، لم يثق بها شارلمان (٢) .

وبدا لشارلمان مصداق حدثه عندما جاءت جيوش الفرنجة ، منتهزة فرصة انشغال الحكم بقتال عميه (٣) ، وضربت حصارها على مدينة برشلونة ، وقد امتنع بها حاكمها زاتون ، كما تسميه المراجع الأجنبية ، ولعل اسمه سعدون ، وقام حاكم برشلونة بما ينبغى عليه من الدفاع المستميت ولما كان شارلمان ، مشغولا فى ذلك الوقت . وهو عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، بتتويجه إمبراطورا فى روما (٤) ، تولى ابنه لويس ووليام كونت تولوز ، أمر حصار برشلونة ، بمساعدة مسيحى أسبانيا .

قسم الفرنجة قواتهم إلى ثلاثة أقسام ، أحدها لحصار المدينة ، والثانى للمرابطة فى المناطق التى تتدفق منها النجدات الإسلامية من قرطبة ، والثالث بقيادة لويس بن شارلمان ، ويعتصم بأعالى جبال البرنس لشن الهجمات الخاطفة على المسلمين . ولذلك تحمل أمير برشلونة وحده عبء

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٧ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ١٠٣

(٢) Deanesly, P. 353

(٣) ابن عذارى جـ ٢ ص ١٠٥ ، أعمال الأعلام ص ١٥ ، ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٣

(٤) انظر Boyce, PP. 44-50

الدفاع عنها ، ولم تتمكن الإمدادات الإسلامية من الوصول إليه ، أو كما يقول بن الأثير . « وتأخرت عساكر المسلمين عنها »(١) ، وكان ألفونس(Alfonss) ملك جليقية يساعد الفرنجة (٢) .

ولما لم تستطع حامية برشلونة وحدها مقاومة هذه القوات المتحالفة ، سقطت المدينة فى يد الفرنجة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ودخلتها جيوشهم عنوة وغنموا منها الكثير من الأسلحة ولاسيما الدروع والخوذ والخيول ، وأرسل لويس جزءا من الغنائم إلى أبيه شارلمان (٣) .

والمعروف أن برشلونة ظلت بين المسلمين ما يقرب من قرن ، وذلك منذ فتحها المسلمون أول مرة عام ٩٥ هـ / ٧١٣ م زمن موسى بن نصير ، وسموها برشنونة Barshinon ؛ ولكن غلب عليها اسم برسلونة (بالسين) ومنذ استيلاء الفرنجة عليها ٧ م ١٨٥ م هـ / ٨٠١ م ، ظلت تحت حكمهم ، حتى استقل أمراؤها عام ٨٨٨ م عندما ضعفت سلالة شارلمان ، وانفلتت السلطة من أيديهم (٤) .

---

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٦ ص ٥٣ — ٥٤

(٢) كان ألفونسو الثانى قد استنجد بشارلمان أكثر من مرة ضد المسلمين فى أسبانيا ، وفى البعثة الثالثة التى أرسلها إلى ملك الفرنجة ، وهو فى هرستال ٧ م ٧٩٨ م ، بعث معها هدايا من بينها بعض الأسرى المسلمين والأسلحة والبغال وكان غنمها من المسلمين فى لشبونة (Deansly P. 354)

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٥٣ ـ ٥٤ ، ٦٠ ، أخبار مجموعة ص ١٢٤ ومابعدها ، ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٣ـ١٠٥ ، غزوات العرب ص ١٣٠ـ١٣٢ ، Lévi—Provencal' T. 1 PP. 173—80; Deanesly, p. 354 ; De Marles. P. 269 Lane — Poole P. 74 .

(٤) الحلل الهندسية ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧

وباستيلاء الفرنجة على برشلونة عاصمة إقليم قطالونيا ، زادت مساحة «المارك الأسبانى» Spanish March أو المقاطعة الأسبانية أو النبد الأسبانى Limes Hispanicus ، إلى النصف. وكان الفرنجة، عندما اتسعت أملاكهم فى أسبانيا تدريجيا ، فما وراء البرانس خلال الفترة التى تبدأ من عام ٧٨٥ م ، كونوا من هذه الممتلكات نبدا أو مقاطعة سموه المارك الأسبانى ، بحسب تنظيماتهم الإدارية عند مناطق الخطر فى الأطراف ، وذلك عام ٧٩٥ م بفضل جهود لويس بن شارلمان ، وأقام لويس فى هذه المنطقة بعض الحصون وشحنها بالمقاتلة ، تحت إشراف اثنين من الأكناد Caunts هما : بوريل Barrel وروستينج Rostaing ، واستعان لويس بالمسحيين اللاجئين وبعض المسلمين الفارين والخارجين على سلطان الدولة الإسلامية بالأندلس، وكون منهم فرقة لحراسة المنطقة الأسبانية ، وبذلك تمكن الفرنجة من تدعيم سيادتهم فى هذه البقعة الأسبانية ، حتى اقتربت أملاكهم من أملاك مملكة جليقة المسيحية ، وملكها المعاصر زمن شارلمان وابنه لويس هو ألفونسو الثانى (الأذفونش) . وعند نهاية حكم شارلمان ضم المارك الأسبانى إلى مملكة أكويتانيا ، كما ضم مارك تولوز . ولما كان وليام أمير تولوز قد ساهم بنصيب موفور فى فتح برشلونة ، فقد جعلت له السيادة العليا على صغار الحكام الذين شاركوه فى حكومة هذه المناطق . ومات وليام كونت تولوز فى عام ٨١٢م ، وصارت أعماله العظيمة يتغنى بها .

أضحى المارك الأسبانى ، يعرف فيما بعد باسم إقليم قطالونيا Catalenia كما أضحى قاعدة مسيحية فى الركن الشمالى الشرقى لأسبانيا الإسلامية ، ونواة حية نمت حولها قوة المقاومة المسيحية خلال الحروب المستمرة

والمتقطعة ، وهى التى شنها المسيحيون وحلفاؤهم فى أسبانيا لإعادة فتح البلاد ، وهى الحركة التى عرفت بحركة الاسترداد المسيحى Chrestian Recanquista (١) .

وقد وصف الحميرى . برشلونة فى زمنه (القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى) بقوله :

« برشلونة مدينة للروم ، بينها وبين طركونه (Tarragna) خمسون ميلا . . . وبرشلونة على البحر . . . ويسكن برشلونة ملك إفرنجة ، وهى دار ملكهم ، وله مراكب تسافر وتغزو ، وللأفرنج شوكة لاتطاق . . . وبرشلونة كثيرة الحنطة والحبوب والعسل ، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة . . . وصاحب برشلونة اليوم راى مند (Ray mond) ابن بلنقير : (Fils de Belengeur) بن بريل (Fils de Barrel) »(٢)

تكررت غزوات الفرنجة على أسبانيا الإسلامية فى الفترة مابين ٨٠٩، ١٨٣ م وذلك بعد أن أصبحت لهم تلك القاعدة فيما وراء البرانس ، ولكنهم استولوا على مملكة نافار المسيحية، انتقاما من موقفها السابق من حملة شارلمان

---

(١) حقيقة احتل المسلمون برشلونة بعد ذلك أكثر من مرة ، لكن سيادتهم عليها لم تثبت ، فقد أعيد سلطان عليها عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦م ، ثم استولى المنصور بن أبى عامر عليها عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥م ، وفى عام ٩٨٧ م استولى عليها كونت بوريل ، وفى عام ١١٣٧ م انضمت إلى مملكة أرغونة (انظر الحلل السندسية ج ٢ ص ٢١٢ ،

Lévi-Provencall I pp. 180-181 ; Deanesly p. 354 ;

(٢) الروض المعطار ٤٢ — ٤٣

وكارثة رونسفال عام ٧٧٨ م ، غير أن الحكومة التى أقامها لويس بن شارلمان فى بنلونة ، عاصمة ناڤار ، كانت ضعيفة ، وفشل لويس فى بسط سلطانه على وشقة ، التى كان حاكمها من قبل قد وضعها تحت سيادة شارلمان ومع ذلك نجح الفرنجة فى الاستيلاء على جزء البليار (١) .

الخلاصة : صار للفرنجة فى أسبانيا مقاطعتان كبيرتان هما : قطالونيا وغشقونيا Gascony ، بجانب جزر البليار .

* * *

على أن علاقات الود التى قامت بين بنى العباس وبين الفرنجة الكارولنجيين ، وتبادل السفارات بينهم منذ انتزاع عبد الرحمن الداخل أسبانيا من سلطة العباسيين ، وتلك التى قامت بين أموى الأندلس وبين الإمبراطورية البيزنطية ، كرد على تلك العلاقات العباسية الكارولنجية ، أدى ذلك إلى مبالغة مؤرخى الفرنجة حتى زعموا لشارلمان حماية على الأراضى المقدسة ، منحها إياه الرشيد .

والذى لا شك فيه أن بين العباسيين والكارولنجيين علاقات ودية ، إذ اقتضت مصالح العباسيين مسالمة الفرنجة ، على بعدهم ، ولكن لقربهم من أسبانيا التى اقتطعها الأمويون من أملاك الخلافة العباسية ، وكذلك لسبب العداء التقليدى بين البيزنطيين والمسلمين ، ورغبة الخليفة العباسى فى تقوية جبهة ضدهم وذلك بمحالفة الفرنجة منافس البيزنطيين والذين يخالفونهم فى المذهب الدينى فضلا عن الرغبة فى القضاء

---

(١) Peanesly p. 364

على نفوذ البيزنطيين المعنوى بين مسلمى الشام والجزيرة. أما مصالحة الفرنجة فى محالفة العباسيين فتتلخص أولا فى تحقيق الحلم الإمبراطورى لشارلمان بمد نفوذه على أسبانيا ، والتذرع بأنه يعمل حليفاً للعباسيين ليكون له حق شرعى فى التدخل فى أسبانيا، ثم إذا كان قد فشل فى هذا التدخل عام ٧٧٨ م، حيث تعرض لكارثة رونسفال(١) فإنه أراد أن ينتقم لما أصابه فى ذلك العام ؛ ثم هو بعد ذلك حليف للكنيسة والبابوية ، والفرنجة دائما يعتبرون أنفسهم خدام العقيدة المسيحية والعاملين على نشرها وتقويتها ، سواء أكانوا تحت حكومة الميروفنجيين أم حكومة الكارولنجيين فهم يريدون تقوية الجبهة المسيحية فى أسبانيا ضد المسلمين وتسهيل طرق الحج إلى الأراضى المقدسة فى المشرق ، وحرصت البابوية حليفة الفرنجة ، منذ خطر اللومبارد فى القرن ٦ م وتقاعد بيزنطة عن حمايتها ، على أن تقوى صلتها ببطاركة المشرق فى الأسكندرية وأنطاكية ليقفوا بجانبها فى صراعها مع بطريرك القسطنطينية على الزعامة الروحية فى العالم المسيحى .

لهذه الأهداف ، جرى تبادل السفارات بين بلاط العباسيين وبلاط الفرنجة ، فأرسل شارلمان سفارة فى عام ٧٩٧ م إلى الرشيد لعقد حلف مع العباسيين ضد الأمويين بالأندلس وضد البيزنطيين ، والعمل على تسهيل طرق الحج ، واجتازت البعثة القدس ودرست أحوال المسيحيين به ؛ رحب الرشيد بهذه البعثة ووعد بتنفيذ مطالب شارلمان ، ورد السفارة فى عام ٨٠١ م ، وأخرى عام ٨١٠ م

وترتب على حسن التفاهم أن شجع الخليفة هارون الرشيد ، إمبراطور

---

(١) راجع ماسبق

الفرنجة على تقديم بعض هدايا للقدس وإقامة بعض المؤسسات الخيرية فى القدس مثل : المكتبة والمستشفى والأوقاف التى أوقفها عليها ؛ وشعر المسيحيون الأرثوذكس بالقدس بقوة شارلمان الكاثوليكى وأهمية الاستناد إليه فبعثوا له برموز تشريفية تقديراً منهم له .

على أن الروايات الغربية بالغت فى تقدير ما ترتب على هذه العلاقات من نتائج إذ زعمت أن الرشيد منح شارلمان حق حماية الأماكن المقدسة ، وأن شارلمان يتمتع بهذه الحماية ، وأنه قام نفسه بالحج إلى الأراضى المقدسة ثم زعمت هذه الأساطير كذلك أن شارلمان ، بمقتضى هذا الحق ، يعتبر أول صليبى ؛ وأرجع بعض الكتاب المحدثين بعض أصول حرب الفرم التى نشبت فى القرن التاسع عشر إلى ذلك النزاع الذى شجر بين رهبان الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، فى أيهما أحق بحراسة بعض الأماكن المقدسة المسيحية ببيت المقدس ، وهذا النزاع استمد أصوله من هذه الحماية الأسطورية التى أذاعها الفرنجة ؛ وإلى هذه الأسطورة استند الفرنجة المتأخرون فى ادعاء حقوق تاريخية لهم على الشام .

تلك هى خلاصة ما ورد بصدد الحماية الفرنجية على الأماكن المقدسة ولاشك أن اينهارد فى سيرة شارلمان لم يرد إلا تفخيم أمر سيده شارلمان كما أن كتابات سانت جال St. Gall أسطورية لايعتمد عليها ، فضلا عن عدم دقة الحوليات الملكية فى تسجيل الأحداث ، بدليل أنها لم تذكر شيئا عن كارثة رونسفال ؛ ثم إن الرشيد كان منتصراً على البيزنطيين ، ولا يوجد دليل على أن مسيحى الشام والجزيرة كانوا خطراً يذكر على

سلامة الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت ؛ هذا وقد تخلى العباسيون عن فكرة استرجاع الأندلس منذ عهد المنصور الذى أدرك استحالة هذا الأمر .

ومن ثم ، فنظرية الحماية على الأراضى المقدسة ، وهم أسطورى ، تناقله الكتاب جيلا بعد جيل ، حتى غدا كالحقيقة التاريخية ، ولكن أسطورية هذه الحماية ، لاتنفى وجود علاقات ودية بين بنى العباس والفرنجة كما لاتنفى قيام شارلمان ببعض الأعمال الخيرية فى القدس وتطلع مسيحى القدس إليه ، أما مسألة إهداء مفاتيح قبر المسيح من قبل بطريرك القدس إلى شارلمان ، فلا أهمية سياسية لها ، وهى لا تعدو أن تكون رمز تشريف وتبريك (١) .

. . .

---

(١) راجع فى موضوع الحماية الفرنجية على الأماكن المقدسة وما تفرع عنها ، والعلاقات العباسية الكارولنجية :

— الدكتور عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول ص ١٤٩ . ١٥٦ ، فقد أورد مناقشة علمية دقيقة فى هذه المسألة .

الدكتور حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض (المجلة التاريخية م ٤ سنة ١٩٥١ ص ١٥٥ ـ ١٦٤) ، اعتمد على ما كتبه الدورى .

ـ ديفيز : شارلمان (ترجمة الباز) ـ الملاحق ص ٣٠١ ـ ٣٠٤

ـ فشر : غزوات العرب فى العصر الحديث (ترجمة هاشم والضبع) ص ٢١٧ — ٢٢٧ ؛

ـ أرسلان : غزوات العرب ص ١٣٢ — ١٣٣ .

Runciman. S., A History of the Crusades. Vol. I. pp. 28 - 29; Charlemagne & Palestine (In English Historical Review, Vol. I, pp. 606 sqq. ; Pirenne, H, Mohammad & Charlemagne, pp 160 —167 ; Deanesly, of Cit, P. 862; Joranson The Alleged Frankish Protectorate in Palestine) (A. H. R. 1927 pp. 241 — 6 ; Eginhard Vie be Cherlem agne (ed. Halphen Paris 1947) ; Buckler F. W. Harun I'Rashid & Charles the Great, PP. 4-29.

أما عن علاقة الأمويين فى الأندلس بالبيزنطيين والتى تعتبر ردا على العلاقات العباسية الفرنجية ، فقد وضحت زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢١ — ٨٥٢ م) ، وعاصره من أباطرة بيزنطة ثلاثة هم : ميخائيل الثانى من الأسرة العمودية ، وهو المعروف بالألكن أو التمتام : M. the Stammerer (٨٢٠—٨٢٩ م) وثيوفلس Theophilus (٨٢٩ — ٨٤٢ م) وميخائيل الثالث ، المنعوت بالسكير (١) (٨٤٢ — ٨٦٧ م) ؛ والمعاصرون للأوسط من خلفاء بنى العباس أربعة هم : المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ / ٨١٣ — ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ — ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ — ٨٤٧ م) والمتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ — ٨٦١ م) .

أرسل ثيوفلس ، وتذكره المراجع العربية باسم ترفيل أوتيوفيل أوتوفلس ، سفارة إلى عبد الرحمن الأوسط عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ — ٨٤٠م ، ورسوله هو قراطيوس Kartiyus ترجمان البلاط البيزنطى ، وحمل الرسول الروى هدية إلى عبد الرحمن الأوسط ، ولخص المقرى هدف وسبب هذه السفارة فى أن توفلس « يطلب مواصلته — أى مواصلة عبد الرحمن ويرغبه فى ملك سليفه بالمشرق ، من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم ، حتى أنه ذكرهما له فى كتابه له ، وعبر عنهما بابنى مراجل ومارده — أمتان للرشيد الأولى فارسية أنجبت له المأمون والثانية تركية وهى أم المعتصم » (٢)

---

(١) انظر مابلى .

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٦٢

كذلك طلب تيوفلس فى رسالة أن يعمل الأوسط على استخلاص جزيرة كريت التى استولى عليها الأندلسيون ، على أثر وقعة الربض (١) ، ويردها إلى الروم ثانية (٢) . وفى نفس الوقت أرسل توفيل وفدين ، أحدهما إلى بلاط لويس بن شارلمان فى إنجلهيم Engelheim (يونيه ٨٣٩ م) والآخر إلى بلاط البندقية (٨٤٠ م) ، وذلك للتحالف معهما ضد مسلمى أفريقية وصقلية ، الذين هددوا الأملاك البيزنطية فى إيطاليا. (٣) .

وكان تيوفلس مدفوعا بسبب الخطر المحدق به من جانب العباسيين ، إذ حدث فى عام ٨٣٧ م أن استولى ثيوفلس على حصن زبطرة ، فأجابه المعتصم بالاستيلاء على عمورية ، مسقط رأس الأسرة الإمبراطورية ، وذلك فى العام التالى (٤) .

استقبل عبد الرحمن الأوسط سفير ثيوفلس مرحباً ، وقد سر بهدايا

---

(١) انظر ما يلى

(٢) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة سالم) ص ٩٧ ـ ٩٨ ؛ مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٥

(٣) المعروف أن بيزنطة اعترفت بامبراطورية شارلمان زمن الإمبراطور نقفور الأول Nicephorus (٨٠٢ ـ ٨١١ م) ، وتدعم الاعتراف زمن ميخائيل الأول ، بدليل ما ورد فى رسالة شارلمان إلى ميخائيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣ م) من رغبة فى عقد هدنة أو تحالف بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية :

" inter Orientale et Occidentale ImPeruim "

(انظر Bryce, pp. 61 .. 2 ؛ ليفى ص ٩٨ ـ ١٠٠ ؛ Lévi Prov, op. Op cit T. I, pp. 250 - I)

(٤) ابن الأثير حـ ٦ ص ١٧٦ ـ ١٨٠

بيزنطة ، وأجابه ببعثة ـ عضواها : الشاعر (الجيانى ، والفليسوف السياسى) والمنجم يحى بن الحكم الملقب بالغزال لجماله والعضو الثانى يسمى يحى أيضا ، وهو منجم كذلك ، وينسب إليه اختراع نوع من الساعات ، حتى عرف باسم « صاحب المنيقلة » (١) . خرجا السفيران القرطبيان من ميناء مورسية فى تدمير ووصلا القسطنطينية بعد رحلة شاقة طويلة ، فى شتاء سنة ٨٣٩ / ٨٤٠ م . واحتفل الإمبراطور بمقدم الرسولين ، ومعهما رسالة مطولة من عبدالرحمن الأوسط ، لاتظهر فيها مجاملات دبلوماسية ، ولكنه أجاب فيها على كتاب ثيوفلس ، فقرة فقرة ، ولم يتقيد بشىء (٢) ، على أن تفاهما تم بين بلاطى قرطبة والقسطنطينية ، لكن لم تبرم معاهدة أو محالفة ، لأن عبد الرحمن الأوسط لم ير أن يتورط فى محالفة دولة بعيدة كل البعد ، ولذا آثر التفاهم والود على التحالف الرسمى ، مما يدل على بعد نظر أمير قرطبة (٣) .

واقترن اسم يحى الغزال ببعض الحوادث التى وقعت له فى أثناء مقامة بالقسطنطينيه ، منها إعجاب الإمبراطورة ثيودورا ، المعروفة فى الكتب العربية باسم تود ، وحديثه معها بحضرة الإمبراطور ، وزيارة الإمبراطورة له بصحبة ابنها ميخائيل ، فى القصر الذى خصص لسكنى

---

(١) ليفى ص ١٠٠ ـ ١٠١

(٢) انظر نص رسالة أمير قرطبة فى الملاحق فيما يلى :

(٣) العبادى ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٤ ـ ١٦٧ ؛ Scott I. pp 478 — 9

ليفى بروفنسال (ترجمة سالم) ص ١٠١ ـ ١٠٥ ؛ Lévi — Prov. T. I.P. 253

الوفد الأندلسي بالقسطنطينية ، وخلد الغزال هـــذه الزيارة فى قصيدة رائعـة (١) .

وتجددت محاولات أباطرة بيزنطة للتحالف مع بنى أمية بالأندلس زمن عبـد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) ، فقد أوفد الإمبراطور قسطنطين السابع الملقب بالأرجوانى Parphyrogenitus (٢) (٩١٣ — ٩٥٩ م) سفارة إلى قرطبة فى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ، تحمـل هدية فاخرة ورسالة إلى الناصـر ، راغبا منه فى إيقاع المؤالفـة ، — كما يقول ابن الخطيب (٣) — إذ كان إمبراطور بيزنطة يخشى نوايا الفاطميين، واستقبل الناصر رسل الروم فى موكب حافل (٤) ، ألقيت فيه خطبة ظهر فيها «عظيم سلطانه وتصف ماتهيأ من توطيد الخلافة فى دولة (٥) ». وأجاب الناصر على رسالة الإمبراطور وهداياه وبعث بسفير من قبله هو هشام بن هذيل يحمل هدية ورسالة ،مؤكداً أحسن المودة ، وعاد هذا السفير من القسطنطينية بعد سنتين (٦) . وفى صحبته رسل الإمبراطور . وهشام بن

---

(١) نفح الطيب حـ ١ ص ٤٤١ — ٤٤٥ ؛ ليفى بروفنسال (ترجمة سالم) ص ١٠٧ — ١١١ ؛ انظر القصيدة فى الملاحق فيما يلى .

(٢) سمى كذلك لأنه ولد فى الغرفة الأرجوانية ، وهى الغرفة المخصصة للامبراطورة فى القصر الإمبراطورى .

(٣) أعمال الأعلام ص ٣٧ ، انظر كذلك ابن عذارى حـ ٢ ص ٣١٩

(٤) انظر وصف الاستقبال فى الملاحق .

(٥) نفح الطيب حـ ١ ص ١٧٢ — انظر نص الخطبة فى الملاحق

(٦) نفح الطيب حـ ١ ص ١٧٠

هذيل من قسوس مستعربى الأندلس ، وهو الذى تسمية المراجع العربية . « الجاثليق » Catholicus (١) .

وطلب الناصر من القسطنطينية الفسيفساء والتحف على يد كبير مستعربى الأندلس وهو الأسقف ربيع بن زيد ، فعاد بالتحف ومر بالقدس واستصحب معه فى عودته عددا من صناع الفسيفساء لتركيبها ، كذلك أحضر ربيع الأسقف حوضا منقوشا بالذهب (٢) .

وفى زمن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ — ٩٧٦ م) ورد من بلاد الروم إلى قرطبة نفر من مهرة الصناع ، ومنهم تعلم الأندلسيون هذه الفنون ، ولهذا أثره البعيد فى تطور الفن الأندلسى (٣) .

* * *

لم تحل هذه العلاقات دون تجدد غارات العرب على فرنسا كما لم يحل دون ذلك طرد المسلمين من سبتمانيا (جوثيا) وأربونة منذ عام ٧٥٩ م ، واستيلاء الفرنجة على برشلونة الأسبانية الإسلامية عام ٨٠١ م .

تكررت غزوات المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وهوجمت مرسيليا أكثر من مرة : فى عام ٨٣٨ م ، ٨٤٢ ، ٨٤٦ ، ٨٤٨ ، ووصل المسلمون

---

(١) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٥ — ١٦٦

(٢) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٦ ؛ أعمال الأعلام ص ٣٨

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٢ ؛ المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٦

إلى مصب الرون قرب أرل ، وغنموا وعادوا (١) ، بل إن غزواتهم امتدت على طول ساحل فرنسا الجنوبية شرقا حتى وصلوا إلى جنوه الإيطالية .

وحدث خلال الصراع الداخلى فى فرنسا زمن شارل الأصلع (ت ٨٧٧ م) أن استعان بعض الخصوم بالمسلمين ، فأمدوهم بجنود ، أجبرت شارل الأصلع على طلب الصلح (٢) . ورغم الاضطرابات التى ملأت أسبانيا الإسلامية فى ذلك الوقت ، وهو النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى (٣) ، فإن المسلمين لم يكفوا عن قرع أبواب فرنسا ، فنزلوا فى عام ٢٨٣ هـ / ٨٦٩ م فى بروفانس ، فى مكان يقال له كامراج Camrague وحاولوا الاستقرار فى بروفانس (٤) .

كانت أحوال الإمبراطورية الكارولنجية ملائمة كل الملاءمة لاستقرار المسلمين فى جنوبى فرنسا ، فقد حدث بعد وفاة شارل الأصلع بسنتين ، أن قام بوزو Boso دوق بروفانس ، وأعلن نفسه ملكا مستقلا فى أكوتيانيا بمساعدة رجال الدين والنبلاء المحليين . كان ذلك فى أكتوبر من عام ٨٧٩ م .

---

(١) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ .

(٢) أرسلان ص ١٥٥ — ١٥٨ (عن دوت بوكى Don Boquet الراهب البنكتى والمؤرخ ، المتوفى عام ١٧٥٤ م)

(٣) راجع : العبادى ص ١١٧ — ١٢٢ ؛ أعمال الأعلام ص ٢٠ — ٢٨ ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ١٦٣ — ١٦٥ ، أخبار مجموعة ص ١٤١ ، ١٥٧ — ١٥٨ ، ١٧١ — ١٧٣ ، ١٧٦ — ١٧٨

(٤) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ — ١٣٠ ؛ أرسلان ص ١٥٨ — ١٥٩ .

وشملت مملكة بوزو حوض الرون من آرل إلى ليون Lyons . كذلك ثار هيو Hugh أحد مقدمى الأديرة . ورغم أن شارل السمين ، إمبراطور الفرنجة وحفيد شارلمان ، تمكن من قمع حركة بوزو وهزيمته فى عام ٨٨٢ م والاستيلاء على معظم أملاكه ، حتى صار محصوراً فى منطقة ضيقة تحيط بمدينة فين Vienne (١) ، إلا أن لويس بن بوزو ، نجح بعد وفاة شارل السمين فى ١٣ يناير ٨٨٨ م ، فى استعادة أملاك أبيه ، وإعلان استقلاله بإقليم بروفانس .

وفى نفس الوقت ، انتهز أود Eudes كونت باريس ، وفاة شارل السمين واضطراب الأحوال ، وأعلن نفسه ملكا على فرنسا الغربية ، وأخذ لقب « ملك فرنسا الغربية » Rex Francia Occidertalis .

وأود هذا ، كان قد اشتهر بشجاعة فى الدفاع عن باريس أمام غزو النورمان لها . فكافأه شارل السمين بجعله دوقا لباريس وماحولها (٢) .

خلال هذه الأحداث والاضطرابات الناجمة عن الثورات الداخلية ، والغزو النورمانى ، أخذ المسلمون يستقرون فى بعض جهات بروفانس ، ويتخذونها قاعدة لهم من جديد ، وذلك بعد أن فقدوا مراكزهم الأولى

---

(١) Deanesly. op. Cit., PP. 460—461

(٢) أود هو ابن روبرت المعروف بالقوى Robert the Strong جد آل كابى Capets الذين انتزعوا العرش من الكارولنجيين فيما بعد وأسسوا أسرة مالكة فى فرنسا

(انظر ما يلى وراجع : Dutaillis. P., The Feu dal Monarchy in France & Eugland, pp. sqq.; Deanesly, PP. 463-4; Brooke AHistory of Europe, P.8.)

فى إقليم سبتمانيا . وفى الفترة بين عامى ٨٨٩ ، ٨٩٤ م ، دخل غزاة جدد من المسلمين ، جاءوا من أسبانيا الإسلامية وتوغلوا فى المنطقة الجبلية المليئة بالغابات والمطلة على خليج سان تروبى St. Tropez جنوبى فرنسا وظلوا فى تقدمهم حتى وصلوا إلى قمة جبل يشرف على جزء كبير من بروفانس . وقد نسب هذا الجبل إلى المسلمين فيما بعد فعرف باسم « جبل المسلمين أو سلسلة جبال المسلمين : Chaines des Mauoes .

أدرك المسلمون أهمية هذه المنطقة الحصينة ، فالبحر مفتوح أمامهم للإمدادات الخارجية ، كما أن البر من الداخل مهيأ للغارات الداخلية ، وبجانبهم الغابات الكثيفة للالتجاء إليها عند الحاجة . أخذوا يقيمون المعاقل فى هذه المنطقة ، وتوالت عليهم الإمدادات من أسبانيا وشمالى أفريقية . وأهم هـــذه الحصون التى بناها العرب حصن فراكسنيتوم Fraxinetum ، وموضعه الحالى هو المكان المعروف باسم : لاجارد فرينى La Garde - Frainet ، ويقع بين هيير Hyéres وفريجوس Fréjus (١)

أما تسميته بهذا الاسم ، فاختلفت حوله الأقوال ، ويحتمل أنه كانت توجد قرية رومانية قديمة بهذا الاسم ، فى هذا المكان ، احتلها العرب وأزالوها ، واختاروا قمة الجبل لإنشاء هذا الحصن وأطلقوا عليه اسم القرية (٢) ، وربما كان أصل التسمية مشتقاً من شجر البلوط Fraxinus

---

(١) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ ، أرسلان ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٨١ ، كليليا (Clelia . : مجاهد العامرى ص ١٨٤ — ١٨٥ ، & Pirenne, Mohammad Charlemagne, PP. 156, 249) .

(٢) غزوات العرب ص ١٦٢ — ١٦٦ .

الذى يكثر فى هذه المنطقة . والمعنى المجازى لهذا الاسم : حربة أو رمح ذو عمود أو مقبض مصنوع من خشب البلوط ، وقد يرجح هـذا التفسير الأخير ، بدليل أن هـذه التسمية أطلقت على مواضع أخرى فى هـذه المنطقة ومايتاخمها : فى دوفينى Daufhiné وسافوى Savoie وبيد مونت .

أورد المؤرخ بيرين Birienne نصا مؤداه ، أنه فى أغسطس من عام ٨٩٠ م أو حوالى ٨٩٠ م ، استقر بعض مسلمى أسبانيا فى منطقة بروفانس وأسسوا حصناً قوياً فى فراكسينيتوم (١) .

أضحت فراكسينيتوم عاصمة الممتلكات الإسلامية فى هذه المنطقة ، وكانت مشمولة برعاية خلفـاء قرطبة والملحوظ أن الخليفة الأدوى المعاصر لتأسيس هذه القاعدة هو الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحـكم (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م) . وقد تمكن المسلمون بفضل مناعة هذا المعقل ، أن يتحكموا فى بروفانس ودوفينى ، ومنه بعثوا بغاراتهم على البلاد المجاورة ، فتوغلوا فى منطقة مرسيليا ، وصعدوا على نهر الرون ، ونشروا الفزع والرعب فى مقاطعتى فالنتـان وفين Valentin et Vienns ووصلوا إلى مدينة إكس Aix (٢) .

ومن هذه المنطقة ، امتد سلطان المسلمين إلى مدينة Nice ، وتتبع مملكة آرل ، وسكنها كثير من المسلمين ، وكان لهم بها حى خاص نسب

---

(١) انظر الخريطة وراجع : Pirenne, op. Cit. P. 249

(٢) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ ؛ غزوات العرب ص ١٧٠

إليهم Canton des Ses Sarrazins . كذلك احتل المسلون مدينة جرنوبل Grenoble وليس من المعروف بدقة ، تاريخ دخولهم فيها ، وقد عثر على كتابة منقوشة على حجر ، تدل على وجود المسلمين فى جرنوبل، ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى عام ٩٥٤ م (١) ، أى زمن عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) .

امتدت غزوات المسلمين إلى سافوى . وهناك أسماء عربية كثيرة ، عثر عليها فى سافوى ، مما يدل على إقامة المسلمين بهذا الإقليم . من ذلك وادى السرازيرة أى وادى المسلمين Vallée des Sarrazise قرب مودان Modane (٢) .

ولا شك أن تحكم العرب فى قلعة فراكسنيتوم بجنوب فرنسا ، كان عاملا أساسياً فى استمرار الغزو الإسلامى لهذا الإقليم وما وراء الألب(٣) ولذلك نجد أن هذه الغارات قلت عندما فقد هذا الحصن حوالى عام ٩٧٥ م وربما انقطعت . ومع ذلك ، حاول المسلمون استئناف الغزو والفتح فى جنوب فرنسا ، فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، غير أن هذه الغزوات الأخيرة لم تأخذ صفة الدوام ، لتغير الأحوال فى أوربا المسيحية وفى أسبانيا الإسلامية بصفة خاصة (٤) .

---

(١) غزوات العرب ص ١٧٤

(٢) غزوات ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) انظر ما يلى

(٤) انظر ما يلى

وقعت هذه الغزوات الأخيرة زمن سيادة آل كابيه Capets (١) بفرنسا وبزعامة مجاهد مسلم مغامر هو أبو الحسين مجاهد بن عبد الله العامرى الصقلبي المسيحى الأصل (ت ٤٣٦ هـ/١٠٤٥) . وقد أشارت إليه الكتب الأجنبية المعاصرة باسم Mwujet أو Musectus ؛ وكان مجرد ذكر اسمه ، يلقى الرعب فى قلوب المسيحيين . اتخذ مجاهد من قاعدته دانية Denia بشرقى الأندلس ، مركزا للوثوب على جزر البحر الأبيض الغربى ، وسواحل فرنسا الجنوبية وسواحل إيطاليا (١) .

وخلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، تعرضت سواحل فرنسا لغزوات المسلمين ، فغزيت عين الطيب عام ١٠٠٣ م ، وفى عام ١٠١٩ م ، هاجم المسلمون مدينة أربونة Narbonne ، ولكنهم ردوا

---

(١) جد آل كابيه الأعلى هو روبرت القوى ، كونت باريس الإقطاعى ، وقد برزت شجاعة روبرت وابنه أودو Odo فى رد غارات النورمان عن باريس ، على حين فشل ملوك فرنسا الكارولنجيون ، أمثال شارل الأصلع وشارل السمين ، وكان ذلك فى خواتيم القرن التاسع الميلادى ومن هذه الأسرة من أخذ لقب ملك ، مع وجود الملك الكارولنجى ، حتى إذا كانت نهاية عهد لويس الخامس الكارولنجى المتوفى عام ٩٨٧ م ، اجتمع سادة فرنسا الإقطاعيون مع رجال الدين ، وانتخبوا هيو كابى Hugh Capet ملكا على فرنسا فى ذلك العام ، فتأسست بذلك أسرة مالكة جديدة هى أسرة آل كابى ، ونسبت إلى هيو هذا ، وبدأ بهذا تاريخ المملكة الإقطاعية فى فرنسا ، واستمرت نحو ثلاثة قرون (راجع : Dutaillis, Pp. 7-11, Brooke, PP. 8, 101 -120 ; Masson, Mediaeval France, PP. PP. 1-21). ٦.١١

(٢) كان مجاهد العامرى من موالى المنصور بن أبى عامر ، وولاه حكم مدينة دانيه ، فاستقل بها بعد وفاة ابن أبى عامر ووسع ملكه ونفوذه فى البحر ، وقصة حياته وازدهار بلاطه من أساطير البطولة والعظمة (راجع : ابن خلدون حـ ٤ ص ١٦٤ ؛ صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ؛ الروض المعطار ص ٧٦ ؛ ابن الخطيب ص ٢١٧ ـ ٢١٩ ، معجم الأدباء حـ ١٧ ص ٨٠ ؛ المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٦ ؛ غزوات العرب ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ، كاميليا ص ٢١١ ـ ٢١٤)

عنها ، كذلك هاجم المسلمون جزر لاران Larin أمام سواحل فرنسا الجنوبية ، ونزل بها فريق منهم عام ١٠٤٧ م . وكانها غزوات سريعة . هدفها الحصول على المغنم ، إذ تعذرت الإقامة والاستقرار . وعثر فى مدينة مارتيج Martigues عند مصب الرون ، وفى جزر هيير Hyéres ، على بعض الأوراق الدالة على إقامة المسلمين فترة من الزمن فى هـــذه البقاع (١) .

---

(١) غزوات العرب ص ٢١ ـ ٢٠٢

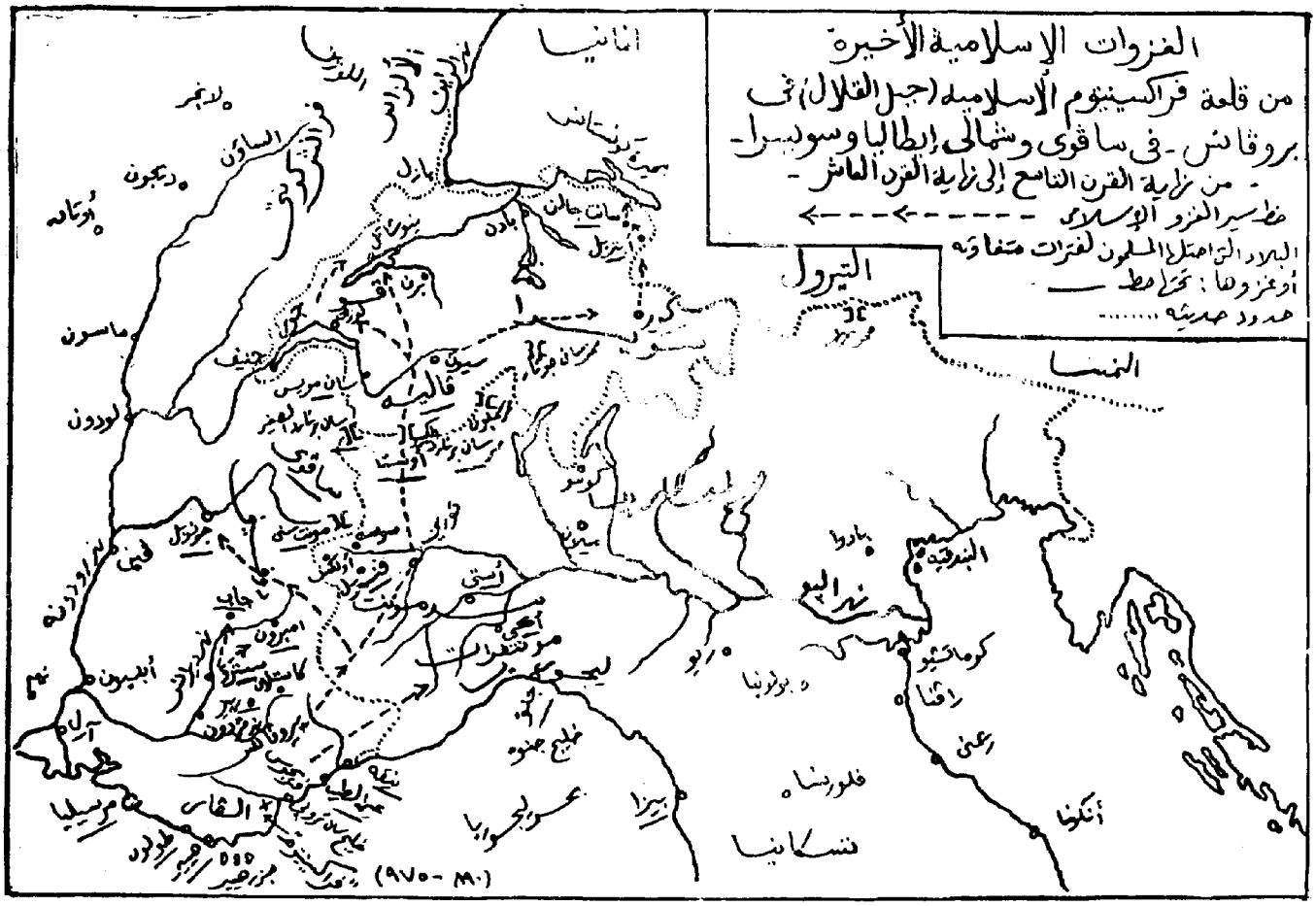
الغزوات الإسلامية الأخيرة
من قلعة فراكسينيوم الإسلامية (جبل القلال) في بروفانس - في ساقوى وشمالي إيطاليا وسويسرا -
- من نهاية القرن التاسع إلى نهاية القرن العاشر -
خطوط سير الغزو الإسلامي
البلاد التي احتلها المسلمون لفترات متفاوتة
أو غزوها : تخطيط
حدود حديثة
ألمانيا
التيرول
النمسا
فالية
(٩٧٥-٩٣٠)